وزارة المعارف العمومية — الادارة العامة للثقافة

ابراهيم باشا

١٧٨٩ — ١٨٤٨

للكتاب

عبد الرحمن زكى

مدير المتحف الحربى

obeikandl.com

فهرس الموضوعات

صفحة

إبراهيم باشا ٥

إبراهيم فى بلاد العرب ٩

إبراهيم فى حرب السودان ٢٠

إبراهيم فى حرب المورة ٢٣

إبراهيم فى حرب الشام ٥١

إبراهيم الجندى ٧٠

إبراهيم فى آخر أيامه ٧٢

قادة الجيش الذين عاونوا إبراهيم باشا ٧٥

أمراء البحر ٨٤

فهرس الصور

إبراهيم باشا ٧

أمير اللواء خورشيد طاهر باشا ٢١

أمير البحر إسماعيل جبل طارق ٢٩

أمير اللواء إبراهيم يكن باشا ٥٣

« أحمد المنكلى باشا ٦٥

سليمان باشا الفرنساوى ٧٩

أمير البحر حسن الاسكندرانى باشا ٩١

بسم الله الرحمن الرحيم

لمناسبة الذكرى المئوية للمغفور له ابراهيم باشا أب الجيش المصرى ، وبناء على رغبة حضرة صاحب المعالى الدكتور عبد الرزاق السنهورى باشا وزير المعارف العمومية ، قد قمت بوضع هذا الكتيب للشباب .

والفاتح ابراهيم ، ليس فى حاجة الى تقديم ، فمثله يقف بين قادة العالم الخالدين ، تحدث عنهم انتصاراتهم على مر الأيام .

وإذا كانت مصر تحتفل اليوم بهذه الذكرى فلأننا كمصريين ندرك مدى مابذله ابراهيم باشا ، وبما خلفه من أمجاد حفظت كيان وطننا ، وبما حققه من جهود فى سبيل إعلاء شأن بلادنا .

وإن جيش الفاروق المعظم ، سليل جيش محمد على ، ليتطلع اليوم الى ابراهيم باشا تطلعه إلى قائده الأول ، الذى سطر له على صفحات التاريخ الحربى تاريخا ناصعا نفخر ونتيه به بين الأمم الناهضة . والله الموفق على الدوام ما

بكباشى

عبد الرحمن زكى

القاهرة ، ذى الحجة سنة ١٣٦٧

أكتوبر سنة ١٩٤٨

ابراهيم باشا

١٧٨٩ — ١٨٤٨

هو أكبر أشبال محمد على ، وقائد الجيوش المصرية فى حروب الاستقلال . يقترن اسمه باسم أبيه فى كثير من جلائل الأعمال وأظهرها : تأليف الجيش المصرى وقيادته فى ميادين الجهاد .

ولد فى قولة سنة ١٧٨٩ ، وجاء مصر بصحبة أخيه طوسون فى سبتمبر عام ١٨٠٥ ، وعهد اليه أبوه بمهام عدّة ، مارس فيها شئون الدولة وأعمالها الحربية والإدارية ، عينه محافظا للقلعة فى سنة ١٨٠٥ ، وتولى منصب الدفتردارية سنة ١٨٠٧ ولما يبلغ العشرين ، ثم تولى أيضا حكم الصعيد عام ١٨٠٩ ، وقاتل المماليك وطاردهم إلى النوبة — وظلت كفاءته الحربية دفينة إلى أن سطع نجمها لأول وهلة فى حرب بلاد العرب وكانت أول حرب خاض إبراهيم غمارها وتجلت فيها مواهبه . وعاون أخاه اسماعيل فى فتح السودان . وتأتت حرب اليونان فناط اليه محمد على اقتياد الجيوش المصرية فى البر والبحر ، فأكسبته هذه الحرب خبرة واسعة فى فنون الحرب وقيادة الجند . ثم شبت حروب الشام والأناضول . وقد اكتملت خبرته ومواهبه الحربية فتجلت

عبقريته واقترن اسمه فيها بأسماء كبراء القادة الفاتحين. ولم تقتصر مواهب إبراهيم فى ميادين القتال بل تبدّت كفاءته الإدارية فى تنظيم الحكم المصرى فى سوريا وتوطيد دعائم الأمن فيها ، وفى المهام الإدارية التى تولاها فى مصر ، وإذا كان من مزاياه فى حياته الحربية حرصه على النظام ، فقد استمسك بعروة هذه الميزة فى تنظيم الشئون الإدارية التى اضطلع بها . وكان فى أوقات السلم شديد العناية بالزراعة ، وامتاز بميله إلى تنسيق الحدائق وتنظيم أشجارها ، وكأنها فى نظره صفوفا من الجند يتعين أن يسودها النظام .

ذاعت شهرة إبراهيم فى أوربا ، فنال بها مكانة عالية ، لما استفاض عن بطولته وشهرته الحربية ، وتجلت هذه المكانة الرفيعة حينما سافر إلى أوربا فى سبتمبر عام ١٨٤٥ للاستشفاء ، وذهب إلى إيطاليا ثم إلى فرنسا فقوبل بأعظم مظاهر الحفاوة والتقدير ، وبلغ لندن سنة ١٨٤٦ فتلقته الملكة ڤكتوريا وعظماء الإنجليز بالترحاب والاحترام .

أغدق عليه أبوه محمد على حبا جما . يلوح ذلك من مطالعة رسائله التى كتبها اليه فى متباين المناسبات ، ومنها ذلك الخطاب الذى بعث به اليه فى السودان يقول له فيه :

ابراهـــيم الفـاتح

"ولدى ابراهيم

... ... إنى أحبك أنت وأخاك اسماعيل حبا لا يقل عن حبى لعينى ولروحى ، فاذا ما عرضتك إلى هذه المتاعب الجمة وأقصيتك عن وطنك ؛ فذلك لكى نستطيع أن ننال جميعا من المزايا ما يرفع شأونا ويعلى قدرنا ، وأنت الذى تقدّر ذلك لا أنا[1] " .

---

(١) خطاب محمد على الى إبراهيم بتاريخ ٤ ربيع الأوّل من عام ١٢٣٧ هـ وكان إبراهيم فى السودان (٢٩ نوفمبر ١٨٢١) .

[المحفوظات الملكية قسم تركى — لا رقم للملف ، ورقم الوثيقة ٩٨]

ابراهيم فى بلاد العرب

شق الوهابيون عصا الطاعة على السلطان وبسطوا سيادتهم على جزيرة العرب ، فطلب الباب العالى من والى مصر محمد على باشا أن يجرد حملة لإخضاع العصاة . فجهز محمد على هذه الحملة تحت قيادة ابنه الأمير طوسون . و بارحت بركة الحج (من ضواحى القاهرة) فى ١٢ ابريل سنة ١٨١١ ، ثم شفعها بنجدة أخرى فى سنة ١٨١٢ ، وقد تمكن الأمير من طرد العصاة من المدينة المنورة ومكة وجدة . ولما تم فتح الحجاز أرسل محمد على الى السلطان مع ابنه اسماعيل مفاتيح الكعبة ، قدمها اليه فى ٣٠ يناير سنة ١٨١٣ . إلا أن الوهابيين لم ييأسوا فهاجموا قوات طوسون واستردوا مراكزهم (١) .

سافر محمد على بنفسه الى بلاد العرب بعد أن أمر بإعداد حملة ثانية تكون تحت إمرته ، وأبحر من السويس فوصل الى جدة ومنها الى مكة ، وهناك ألقى القبض على شريفى مكة وجدة بعد عزلهما ثم رحلهما الى مصر .

---

(١) تاريخ مصر فى عهد محمد على تأليف فليكس منجان عام ١٨٢٣ ، جـ ٢ ص ٧٨ .

وقد أدرك محمد على أنه من الخطل محاربة العرب فى البقاع التى تتكاثر بها الهضاب والنجاد، فاستدرجهم الى السهول والوهاد متظاهرا بالتقهقر قبالة جموع العصاة، وجازت الحيلة أو الخدعة عليهم، فتركوا الهضاب التى امتنعوا فيها . وساروا الى الوهاد مقتفين أثر محمد على . وبمجرد أن توسط الجيشان السهول تجمعت القوات المصرية على هيئة مربعات وأصلت العرب نارا حامية حصدتهم حصدا وردتهم خاسرين ستة آلاف قتيل، وفر قائدهم بفلول جيشه ثم زحف فى داخلية البلاد واستولى على مواقع حربية على درجة بالغة من الأهمية . ولما اطمأن الى الموقف الحربى عاد وترك ابنه طوسون يتم غزو البقية الباقية من بلاد العرب .

ولما ارتأى الوهابيون أن لا أمل لهم فى النصر طلبوا الصلح وقبلوا شروط طوسون وارتد الى مصر . إلا أن الوهابيين نقضوا العهد وعادوا الى الثورة بعد أن حشدوا ثلاثين ألف مقاتل تحت قيادة الأمير عبد الله وأخيه الأمير فيصل، فلم يكن من محمد على إلا أن أمر بتجريد حملة ثالثة ، وفى هذه الأثناء مات طوسون (فى برنبال ٦ يوليو سنة ١٨١٦) فعهد محمدعلى فى قيادة الحملة الى ابنه ابراهيم ، وكان عمره آنذاك ٢٧ سنة . ولم تغفل أم ابراهيم عن تقوية قلب ولدها ، وطفقت تدعو الله أن يجعل النجاح حليفه .

ولما هم ابراهيم بتوديعها فى اليوم الثالث من سبتمبر سنة ١٨١٦، عانقته وناطت برقبته عقدا من الجوهر، وسألته ألا ينزعه من عنقه ليلا ولا نهارا حتى يهديه الله الى الضريح الشريف، فوعدها ابراهيم أن يعمل برغبتها، وأقسم أن لا يحلق رأسه حتى تضمه الى صدرها بعد أن يعود ظافراً[1].

أبحر إبراهيم من ميناء القصير فى الثالث والعشرين من سبتمبر عام ١٨١٦ وبعد ستة أيام من هذا التاريخ ألقت سفائنه مراسيها فى ميناء ينبع، وما كاد يدخل المدينة المنورة فى اليوم التاسع من شهر أكتوبر حتى سارع الى قبر المصطفى عليه السلام، ووقف أمامه خاشع الطرف، ثم وضع عليه العقد الذى أهدته اليه أمه. ولشد ما سرّ بهذه الهدية الثمينة شيخ الحرم فبسط كفيه الى السماء ودعا الله جهرة قائلا:

" أيها النبيّ الكريم، ها هو إبراهيم بن محمد على قد خرّ ساجدا أمامك وقد قدم الى ديارنا، فأيده اللهم بنصرك وهبه القدرة على تأييد شرعك ونصرة كتابك المقدس وتمزيق شمل العصاة ".

---

(١) تاريخ مصر فى عهد محمد على تأليف فليكس منجان عام ١٨٢٣، جـ ٢ ص ٧٨.

وأكمل القائد الشاب هذا الدعاء بقوله : " أيها النبيّ الكريم لقد أعانني الله أنا ابراهيم بن محمد على باشا على استرجاع البلدين المقدّسين مكة والمدينة، وجئت ضريحك الشريف ضارعا متوسلا أطلب المعونة فيما أنا مقدِم عليه من الحرب والكفاح، فاجعل اللهم النصر حليفي ووفقني الى معرفة مقاصد العصاة ، فان أعدائي هم أعداؤك، وأعني على تمزيق شملهم وتشتيت جموعهم، فاني لن أدخل سيفي في غمده حتى أمزّق جمعهم " .

وكان زعيم الوهابيين قد التحم مع محمد على باشا في أول معركة له لدى « بصل » وهزم فيها (١٨١٥) وقد اضطرت الأحوال محمد على للعودة الى مصر، وبدأ في تنظيم جيش مصري على النسق الحديث ، بينما كان « طوسون » يحاول القضاء على الوهابيين ، لكنهم نقضوا شروط الصلح ، فجهز محمد على حملة أخرى وهي التي نحن بصددها بقيادة ابراهيم ، وكانت هذه الحملة مؤلفة من بعض وحدات الجيش النظامي الحديث . وأظهر « عبد الله » منتهى الحكمة والسداد حينما استقر رأيه على انتظار ابراهيم في ديارة، فبهذه الخطة يستطيع جنوده وهم في أرضهم محتفظون بنشاطهم واتحادهم أن يحاربوا عدوّهم وهو بعيد عن قواعد تموينه ، وكان الأساس الذي قامت عليه هذه الخطة أن الجيوش المصرية عندما

تصل الى مكان الموقعة الفاصلة ستكون منهوكة القوى فى سيرها الشاق الطويل فى الصحراء بين القبائل المعادية ، وأن الغزاة سيحل بهم النصب والضعف من هجمات القبائل الضاربة فى البلاد الواقعة فى طريقهم . ولم يكن يخفى على ابراهيم أن نجاح الحملة موقوف على ولاء القبائل التى سيخترق بلادها . نعم إنهم لم تكن لهم قوة يعتد بها ، لكنه كان فى حاجة الى ولائهم ، ولم يكن يصعب عليه أن يحصدهم حصاد الهشيم ، بيد أن معونتهم هى التى كان يحتاج اليها لتخفيف مشاق الطريق ، ولذلك حرص على أن يظهر لهذه القبائل أنه لم يقدم اليهم فاتحا بل صديقا مسالما . وهاك ماوصف به الكاتب « بلجريف » سيره : " كل دلو فى الماء قدّمها الى جيشه البدو أوالحضر ، وكل ثمرة جمعها الجنود ، وكل حطبة أوقدوها دفع ثمنها على الفور . وحرّم على الجنود والضباط على السواء أن يؤذوا الأهالى العزّل غير المحاربين أو يسيئوا اليهم أقل إساءة ، ونفذ ذلك التحريم بشدّة وصرامة ، فأخذت القرى والقبائل تتسابق فى تقديم الطاعة والخضوع للمصريين إلا أقلية ضئيلة ، وحتى هؤلاء لم يقس ابراهيم عليهم . بل أظهر الرأفة بهم عن قصد وتدبير ، فلم يسىء اليهم بأكثر من إرغامهم على أن يجلوا عن مساكنهم ، و يسبقوه الى أواسط نجد " ليزيد بهم جيش المؤمنين " . وكان غرضه

الحقيق أن يستنفذ هذا الخليط العديم النفع موارد عبد الله و يوهن قوته[1]. ولسنا نقصد بهذا أن قلب ابراهيم كان يفيض حنانا و رأفة ، بل كل مانعنيه أنه كان يطوى بساط الجزيرة وأنه كان يرى مصلحته الحربية أن يضم هذه العناصر المتباينة الى جانبه ، وقد نجح فى هذه الخطة نجاحا تاما . على أن ابراهيم لم يجد الأمور قبالته سهلة مذللة بل لاقى صعابا جمة قبل أن يستطيع بسط سيادته الكاملة على هذه الأرجاء .

وحمى وطيس القتال حول « الرس »[2] وضيق ابراهيم الخناق على حصنها ، وخسر فى هذا الحصار ثلاثة آلاف من رجاله ، ولما تبين له أن الحصن لا بد واقع فى يده . أرسل الى عبد الله يطلب اليه تسليمه ، فأجابه الأمير النجدى بقوله : " تعال خذه ". فقبل ابراهيم هذا التحدى وهجم هجمة صادقة لم تستطع حاميته أن تردها . ولما دخل ابراهيم المدينة لم يجد أعداءه فيها لأن العرب أخلوها ، وأسرع عبد الله الى عاصمته « الدرعية » ، وبين الدرعية والرس ثمانمائة كيلومترات والطريق صحراء جرداء .

---

(١) بالجريف ، ج ٢ ص ٥٤

(٢) الرس فى القسم الجنوبى من القصيم يبلغ عدد سكانها نحو ٤٠٠٠ نفس تحيط بها البساتين ولها مزارع واسعة فى بطن وادى الرمة . [محمد بدران]

وكان علم ابراهيم بخفايا رمال الصحراء العربية أكثر من علم نابليون بأسرار ثلوج روسيا. وقابلته بلدة «عنيزة»[١] بالترحاب فحصنها ليجعلها نقطة ارتكاز له اذا ما اضطر الى التقهقر. ثم انثنى الى «بريدة»[٢] فقاومته، فاقتحم أسوارها وفتك بحاميتها المؤلفة من مائتى مقاتل. وسقط «الذنب»[٣] فى أيدى المصريين فى الثانى والعشرين من ديسمبر عام ١٨١٧ وبلغ «الشقرا» (فى الجهة الجنوبية الشرقية من وادى الدواسر) فى الثالث والعشرين من يناير ١٨١٨، فلما سلمت أصبح الطريق الموصل الى «الدرعية» ممهدا قبالة الغزاة الفاتحين. وأقام ابراهيم فى هذه المحلة مستشفى ترك فيها من لم يقو على المسير حتى يستعيد قواه. ثم زحف على «ضرمة» (من بلاد العارض أحد أقسام نجد التى تبعد عن الدرعية مائة كيلومتر) فلما وصلها أصبحت عاصمة الوهابيين منه قاب قوسين أو أدنى. وقد أتم تطويقها فى اليوم السادس من ابريل عام ١٨١٨

---

(١) تقع عنيزة الى يمين وادى الرمة على مبعدة ميلين منه فى مكان خصيب وهى تنافى بريدة فى الأهمية

(٢) تقع بريدة فى الطرف الشمالى من القصيم العليا على الجانب الأيسر من وادى الرمة وهى من أكبر المدن النجدية وأحسنها نظاما.

(٣) فى منتصف الطريق بين الشقراء والقصيم وهى جملة قرى آهلة بالسكان منضم بعضها الى بعض.

وبعد أن استمر الحصار عدة أسابيع. هبت فى اليوم الحادى والعشرين من شهر يونيو عاصفة رملية اقتلعت خيام المصريين ، وجمعت معها جذوة نار من معسكر الغزاة وألقتها فى مستودع ذخائرهم ، فاتصلت النيران بالذخائر ونسفت مائتى برميل من البارود ومائتين وثمانين صندوقا من الخرطوش ، والتهبت الخيام وامتدت ألسنة اللهب فى لمح البصر الى المدينة . وأراد ابراهيم أن يستفيد من هذا الحادث فيأخذ العدو على غرة كما حاول عبد الله أن ينتفع بالاضطراب الذى وقع فى معسكر المصريين فيخرج اليهم ويهاجمهم ، فأخفق كلاهما فى مقصده . ثم تغير اتجاه الريح فخمدت النيران ، وآذت العاصفة الرملية عينى ابراهيم كما آذتهما لهيب النار أيضا حتى اضطر القائد أن يبقى مغمض العينين ثمانية أيام كاملة . ولو كان ابراهيم رجلا عاديا لما استطاع أن يبلغ بجيشه الدرعية . لذلك كان وصوله الى هذا البلد أكبر دليل على مهارته وجلده . ثم استخف بالرمد وحمل على المدينة فى الرابع من سبتمبر حملة صادقة أرغمت عبد الله على طلب الصلح ، وطلب الأمير الوهابى إلى ابراهيم أن يعفو عن أهله وجنوده ويؤمنهم على حياتهم ، والا تخرب عاصمته ، وأن يخرج هو سالما ، ولكن القائد المظفر لم يتقبل هذه الشروط . وفى التاسع من سبتمبر سلم عبد الله نهائيا ، ثم جىء بالأمير وأفراد أسرته أمام القائد المنتصر فقال له :

" إنى خادم سلطان الآستانة وله وحده أن يتصرف فى أمرك ، أما أنا فلا أملك هذا الحق وستسافر معى الى مصر لتنتظر فيها أمر السلطان وستكون فيها موضع الإجلال والتعظيم حتى اذا جاءت تلك الأوامر وجبت عليك إطاعتها " .

فلم يزد عبد الله وامتثل بآية من القرآن الكريم . وعامل ابراهيم باقى الأسرى مثل هذه المعاملة الطيبة فلم يقتل منهم أحداً[1] . ومضى ابراهيم فى عمله ببلاد العرب مضاء تمليه عليه الحكمة وحسن التدبير ، فلقد كان رجل حرب وحكم فى آن واحد . رأى أن من مصلحته أن يستعين على حكم البلاد بأمرائها الأقدمين ، ولكنه ارتأى أيضا أن لا نجاح لحكمه إلا اذا قضى على العصاة . وشرع ابراهيم فى تنظيم البلاد فأخذ يطوف بنفسه بين جوانبها منتهجا نفس السياسة التى انتهجها خلال زحفه من مكة وفى أثناء مقامه فى الدرعية ، وهى سياسة اللين والمسالمة مع رؤساء القبائل وعامة الشعب وسياسة الشدة المؤدية الى أغراضه ، مسترشدا فى عمله بقواعد النظام والرقى والعدل . وعنى ابراهيم عناية خاصة بمعرفة المواقع الحربية الهامة فى البلاد وتحصينها ، ووضع أساس الاصلاح الزراعى فأمر

---

(١) أرسل عبد الله الى القاهرة ثم نقل الى الآستانة وسلم للسلطان فأمر بقطع رأسه .

بحفر الآبار فى الأماكن الجدباء التى ظنّ أن فيها ماء . ولم يصدر ابراهيم فى عمله عن عجلة ، بل أقدم عليه بعد روية وتدبير ، فقد كان يعتقد أنه يضع أساس دولة عربية إسلامية قلبها النابض مصر .

ويحكى أن مصريا سأله مرة : " كيف تجول برأسه هـذه الأفكار وينسى وطنه الأول ؟ " فبادره بالإجابة قائلا :

" لقد جئت إلى مصر طفلا فغيرت شمس مصر دمى وبدلته دما مصريا خالصاً[1] " .

عاد إبراهيم الفاتح إلى مصر وقد سجل إسمه بين الفاتحين الذين عرفهم الإسلام ، منذ أيام خالد بن الوليد ، وسعد بن أبى وقاص ، وعمرو بن العاص ، والمثنى بن حارثة . وقد كان من أظهر نتـائج حرب بلاد العرب أن تخلص محمد على من معظم الجنود الباشبوزق الألبان الذين ألفوا عناصر الفساد والفتن فى مصر . وقد وصف المؤرخ . « إيميه فنترينيه » الاحتفالات التى أقيمت فى القاهرة لتكريم إبراهيم باشـا حين رجع ظافرا من بلاد العرب فى ديسـمبر عام ١٨١٩ قال :

" كان من أهم مايلفت النظر فى هذه الاحتفالات أن الوالى لم يشترك بنفسه فيها وذلك لكى لا يكون لأحد غير إبراهيم شىء من

---

(١) مؤسس مصر الحديثة ــ لدودوبل ص ٢٥٧

عظمتها وجلالها . ولهذا بقى فى خلالها بعيدا عن الأنظار تدفعه إلى ذلك عاطفة الأب الحنان . فوقف فى مسجد السلطان الغورى فى موضع لا يراه منه أحد ، يشاهد من إحدى نوافذه موكب الأغوات والأعيان وعامة الشعب والجند يسيرون فى الطريق وكلهم يرفعون أكفهم ضارعين إلى الله أن يحفظ لهم مصدر سعادتهم وهناءتهم بطل ذلك اليوم المجيد . واستقبله والده يوم ١١ ديسمبر فى سراى شبرا وأقيمت معالم الأفراح سبعة أيام وسبع ليالى متواليات [١] .

---

(١) دامت ولاية محمد على على بلاد العرب ٥ ٢ سنة كان ينفق فيها ٣٠٠,٠٠٠ ر ٥ ريالا سنويا .

راجع كتاب ابراهيم باشا للقاضى كرابيتس وترجمة الأستاذ محمد بدران .

ابراهيم فى السودان

وبينما كان محمد على يدرّب الجيش المصرى على النظم المستحدثة ولى وجهه صوب الجنوب ، وبدأت حملة السودان سيرها من القاهرة فى يوليو عام ١٨٢٠ بقيادة الأمير إسماعيل . وتجمع الجيش فى أسوان ، وبعد أن نظم مؤنه وذخيرته سار على بركة الله ودخل دنقلة حيث شتت قوى المماليك بسهولة . ولم تلق الحملة مقاومة حتى « كورتى » ثم « بربر » التى دخلتها فى مارس سنة ١٨٢١ وبعد شهرين دخلت « شندى » ومازال إسماعيل متوغلا فى البلاد حتى وصل ملتقى النهرين حيث توجد اليوم مدينة « الخرطوم » ثم اتجه نحو النيل الأزرق واستولى على سنار . وكان محمد على قد عين الخطة العامة التى ينبغى للجيش المصرى أن يتبعها فى خطاب كتبه إلى ولده إسماعيل فى ١٧ يناير سنة ١٨٢١ ، وهذا الخطاب يفصح عن أخلاق محمد على ؛ فهو يؤكد فيه لإسماعيل أن الشجاعة وإن كانت من الضرورات لاتغنى عن الثبات والفطنة ودماثة الخلق .

وفى غضون إقامة الجيش فى سنار انتشر المرض بين الجند ، فاضطر إسماعيل لطلب الإمداد من أبيه ، فوصله المدد بقيادة إبراهيم باشا ، واتفق الأخوان على تقسيم العمل بينهما ، فكانت

أمير اللواء خورشيد طاهر باشا

مهمة إسماعيل الزحف بجيشه إلى أعالى النيـل الأزرق، ومهمة ابراهيم كشف منابع النيل الأبيض .

واصل اسماعيل زحفه على النيل الأزرق ، أما إبراهيم فقـد حال بينه و بين تنفيذ أغراضه مرضه الشديد، فاضطر للعودة إلى مصر بعد وصوله بجيشه إلى « دنكا » . وفى منتصف عام ١٨٢٢ أرسل محمد على باشا جيشا ثالثا بقيادة صهره «محمد بك الدفتردار » لغزو كردفان، فاستولى على الأبيض، وانتقم من ملك شندى الذى حرق إسماعيل وأتباعه فى خلال ارتحالهم إلى مصر . ولم يكتف محمد على بكل هـذه الغزوات ، بل استولى أيضا على بلاد التاكة (الواقعة بين نهر العطبرة والبحر الأحمر) وأسس مدينة كسلا ومد سلطانه على جميع هذه البقاع النائية ، ثم استأجر سواكن ومصوع من السلطان وضمها الى امبراطوريته .

رأينا محمد على — البعيد النظر — أول من حقق فكرة وحدة وادى النيل فى تاريخ مصر الحديث .

إبراهيم فى حرب المورة

١٨٢٢ — ١٨٢٨

الثورة اليونانية

فى عام ١٨٢٠ ثارت اليونان على حكم السلطان ثورة جائحة قوامها التضحية وعنوانها البسالة . وظلت تغلى غليان القدر على موقد زاخر باللهب ، وروحها الثائر يفيض فى غناها صبوة وفتوة . وحماستها تنسكب فى أناشيدها القومية ، فتطفو فروسيتها فى كل بقعة إغريقية تستوحى المجد القديم وتستنهض المعالم الغابرة . ونيران الوطنية المتأججة تذكى صدور أبنائها فتتدفق حميتها جارية فى العروق دفاعة للنهوض .

فمن لسحق هذا الروح الذى لا يموت ، وإطفاء النور الذى لا يخمد ، والحماسة التى لا تفتر ؟ لمن هذا السيل العرم كى يردّه ، بل أى صخرة تقوى على أن تصدّه ! .

لا شىء سوى المصرى . هكذا قرر رأى السلطان بعد طول تفكير وروية . المصرى الذى توارث عن الفراعين بطولتهم ، وعن العرب إيمانهم ، وعن الأتراك كبرياءهم . المصرى الذى إذا افتاده زعيم لا يعرف التوقف إلا إذا أدّى مهمته . المصرى الذى يعمل

بدافع من الله وواعز من ضمير وإخلاص للواجب . فلا يعنيه ما يبذل بقدر ما يعنيه أن يبلغ الهدف المرصود .

لذا لم يكن عجبا أن نرى سلطان تركيا وخليفة المسلمين يولى وجهه شطر مصر ليستنجد واليها كيما يطفئ وقدة الثورة اليونانية بجنوده البواسل ، ويتقدم محمد على — وهو الغوّاث الكريم — لتلبية النداء ويتخير إبراهيم البطل لأداء مهمة القيادة .

فمن كان ذلك القائد العظيم ، ومن حارب المصريون ؟ .

لكى ندرك حقيقة إبراهيم يتعين علينا أن نتبين ميزاته ونفسيته وفى سبيلنا لاستيضاح هذه النفسية ، حرىّ بنا أن نعرف كيف انتقلت إليه الخصائص الروحية التى اتسم بها .

وهذا يدعونا إلى أن نعرج على أمر نشأته . ولا يعزب عن الفكر أن إبراهيم البانى المنبت . والألبانى ملك الجبال ، فهو الراعى والصياد ، أو الجندى الذى لا يسترشد إلا بمشورة بندقيته ، ولا يستهدى إلا بنصيحة سيفه ، وطبيعة بلاده هى طبيعة بلاده ألبانيا المقدونية التى أخرجت شعبا قاده اسكندر وفتح به العالم ، شعبا اتصف بفضائل الشجاعة والإقدام والعناد والدهاء ، أدّى لتركيا والإسلام أجل الخدمات ، واستطاع بين فترة وأخرى أن يحكم الامبراطورية العثمانية ؛ فلقد خلع عليها رداء المجد والعظمة بسلسلة الانتصارات

التى أحرزتها أسرة « كبرولى » الصدر الأعظم ، وحاول فى شخص مصطفى باشا من سحق الثورة اليونانية الأولى . ثم رأيناه بعد ذلك يعود و ينقلب على السلطان حتى كاد يخلعه و يطوّح بأسرة عثمان . وتسنى لهذا الشعب فى شخص محمد على أن يحرك مصر من تحت الأنقاض وينهض بها أمة عريقة ذات عظمة وجلال .

ومما تقدّم نستطيع أن ندرك صورة صحيحة من طبيعة الجنس الذى انحدر منه إبراهيم ، ويتهيأ لنا أن نفهم وسيلتهم الأولى فى الحياة وهى صليل السيوف وتدوية المدافع وصفير الرصاص .

بيد أن الصورة العامة للجنس لا تفضى وحدها إلى استخلاص الحقيقة الجلية الناصعة لشخصيات الرجال وروحهم . ولذلك يتحتم أن نعرف من حارب إبراهيم فى بلاد الإغريق وهو على رأس الجيش المصرى . ثم نلق بعد ذلك نظرة على أعماله لنخرج مما انعكس على هذه الأعمال من أشعة نفسيته صورة خصائصه التى إذا مزجناها بصورة الجنس الألبانى تسنى لنا معرفة الطبائع والغرائز والخلق والذكاء وجميع المحركات التى سيرت إبراهيم فى حياته العامة . و إذا تم ذلك قدّرنا المجهود الشاق الذى قاسته الجنود المصرية فى الحرب حتى عقدت لهم فيها ألوية الظفر فى كل مكان.(١)

(١) أحمد رفيق « مصر والاستعمار الدولى — سلسلة مقالات فى جريدة البلاغ » .

ماذا صنع إبراهيم

ذهب إبراهيم على رأس جيش مصر لإخضاع بلاد المورة .

ذهب إبراهيم ليناضل الراعى اليونانى فى قنن الجبال وهو ينشد : "ثروتى فى سمهرى وسيف ودرع جميل ، فبالسمهرى أزرع ، وبالسيف أحصد ، وبالدرع أطأ العنب الناضج" ، ورجل الشعب وهو يغنى : "سأحمل سيفى تحت النار ، وأقلد هرمودیوس وأريستوجيتون عندما قتلا الظلم" ، والجندى وهو يوقع : "نحن أيقاظ دائما فإما اللسان وإما الحسام" ، والضابط وهو يسلم الروح ويناول ابنه سيفه وهو يهمس له : "أى بنى ، لقد خلفتنى اليوم فى القيادة ، فاحفر لى مقبرة عريضة عميقة حتى أقف فيها بقامتى ، ثم اجعل لها نافذة على اليمين حتى أسمع منها دوى بندقيتك خلال المعمعة" ، والضابط الجريح وهو يحادث جنوده البواسل : "أيها الجنود البواسل ، ها أنا ذا قد جرحت فانتزعوا رأسى وادفنوه حتى لا يشمت العدو بموتى" .

فأى فروسية دفعت ابراهيم وجيشه المصرى الى مجاهدة الروح اليونانية وسحقه ؟ وأى غريزة نصرته على الطبيعة العالمية المماثلة فى الحرية ؟ وأى فنّ انتهجه ؟ وأى عبقرية الى الظفر قادته ؟

لقد حمل إبراهيم على رأسه تاجا مزدوجا من الفروسية والعبقرية ، فألقى به الرعب فى كل مكان نزل ، بيد أنه لم يكن الرعب على إطلاقه ، بل كان رعب الروعة وخشوع الجلال . استولى على الأعداء فألقوا مقاليدهم إليه وسلموا سلاحهم له ، بل قل بغير إسراف ركعوا مستسلمين ! .

فماذا صنع إبراهيم ؟ .

لا يتسع هذا المجال لتعقب جميع حوادث حرب المورة . وعلى هذا سنكتفى بسرد أظهر الأحداث العسكرية التى سبقت سفر الحملة المصرية بقيادة إبراهيم باشا لغزو شبه الجزيرة .

وقصارى القول ، قد عجزت جيوش السلطان عن القضاء على الثوار فاستنجد — كما سبق أن أورينا — بمحمد على الذى سارع بتلبية الرجاء وأقلعت النجدة البحرية الأولى بقيادة أمير البحر اسماعيل جبل طارق فى الحادى عشر من شهر يوليو عام ١٨٢١

وفى الثامن من مارس سنة ١٨٢٢ ، أبحر أسطول مصرى ثان ، عقد لواؤه لإسماعيل جبل طارق ، كما عقد لواء القيادة البرية للقائد حسن باشا ، زوج كريمة محمد على . وفى ٢٩ مايو نزلت القوات الى أرض جزيرة كريت وحاربوا الثوار فى بضعة معارك

الى أن تم لهم النصر فى آخر الأمر وأنقذوا الحاميات العثمانية المحاصرة . ثم تتابعت المعارك البحرية فى مياه الجزيرة وعلى شواطئ الأناضول وكان النصر حليف البحرية المصرية الناشئة .

دور القائد ابراهيم

ثم جاء دور القائد إبراهيم !

وفى خلال عام ١٨٢٣ ، اشتد الحرج على جيوش السلطان ، فارتأى هذا أن يستنجد بجيش محمد على فأرسل إليه فى ١٦ يناير سنة ١٨٢٤ فرمانا استهله بعبارات الاطراء واختتمه بتكليفه بالتوجه الى المورة ليبيد العصاة ، على أن تكون — بعد إخماد الثورة — داخلة فى نطاق ولايته .

فكر محمد على فى الأمر مليا ، فرأى أنه باشتراكه فى الميدان الأوربى إعلاء لشأن مصر وإحراز مكانة فى السياسة الدولية ... أليست لمصر فى تفكير محمد على المكانة الأولى ؟

وتولى إبراهيم إعداد الحملة وقيادتها . وما وافى ١٩ يوليو سنة ١٨٢٤ حتى أقلعت الحملة وتعدادها ١٨ ألف مقاتل منهم ألفين من الألبان وكان الأسطول بقيادة اسماعيل جبل طارق .

أمير البحر اسماعيل جبل طارق

ووقعت طائفة من المعارك البحـرية كان إبراهيم بطلها وقد حالفه النصر فى أكثرها . ومن أهمها : معركة ستمباليا (١٣ نوفمبر سنة ١٨٢٤)، ومعركة سيريجو (٢٩ ابريل سنة ١٨٢٥) .

وواصل الأسطول المصرى مسيره نحو المورة فبلغها بعد معركة طاحنة على مقربة من جزيرة سيريجو الآنفة الذكر ، وانجلت عن انتصار المصريين دون أن يفقد سفينة واحدة بينما خسر الثـوار سبع سفن .

ومما يلفت النظر ما أبداه إبراهيم باشا من الشجاعة والكفاءة فى قيادة الأسطول، وكنا نحسبه قائدا بارعا فى فنون القتال على البر فحسب . ولولا عزيمتـه التى لا تفل، ورباطة جأشـه فى مجابهة الأخطار، لدمر الأسطول المصرى وتبدد قبالة السفن اليونانية .

وفى هذا الصدد كتب المؤرخ الفرنسى دوان يقول :

"إن إبراهيم باشا فى قيادة أسطول مؤلف من مائتى سفينة تقل نحو عشرين ألف رجل من جنود وبحارة قد اضطلع بمثل المهمة التى قام بها بونابرت من قبـل . وإذا تذكرنا أن مصر لم يكن لها الى ذلك الحين أسـطول نظامى ولا تقاليـد بحرية ولا هيئـة من الضباط البحريين الأكفاء ولا العدد الكافى من البحارة المدربين ، وكان على إبراهيم باشـا أن يبتـكر وينظم على الفـور كل ما يلزم

الحملة البحرية من سفن حربية وسفن للنقل ورجال وعتاد، وأن يرقض نفسه على امتطاء البحـر والقتال بين أمواجه وأهواله . إذا تذكرنا كل ذلك فإنه يحق لنـا أن نعجب كيف أن العمارة التى حشدها محمـد على أمكنها أن تبقى خمسة أشهر تجوب البحار دون أن تتفكك أوصالها ، وكيف استطاعت أن تثبت حيال الوثبات والهجمات الشديدة التى استهدفت لهـا وأصابتها من عدو له صولة ومهارة من غير أن تخسر سوى سفينتين حربيتين وبضعة نقالات . لا مرية أن هذه الحقائق تدلنا على مضاء عزيمة إبراهيم باشا وعلو همته ، وما تحتـويه نفسه من صفات العظمة وميزات الرياسـة والقيادة فضلا عن الشجاعة التى تنتزع الإعجاب[1] " .

بطولة إبراهيم فى الحرب

نزلت قوات إبراهيم فى أرض المورة بالقرب من قلعة ميتون وقد وحدت قيادة الجيشين المصرى والعثمانى ، وتسلم إبراهيم قيادة الجيوش العليابعـد أن أقنع محمـد على البـاب العالى بضرورة هذا التوحيد قائلا : " إن النصرفى المواقع الهامة لا ينال إذا عهد بالقيادة العليا الى أكثر من رجل واحد " .

---

(١) Les Fregates de Moh. Ali — Page 12.

استولى إبراهيم على «ميتون» و«كورون»، ثم وجه همه لحصار مدينة «نفارين». ولسنا فى حاجة الى القول بأن هذه المدن الثلاث تعدّ مفاتيح المورة .

ولما طال أمر حصار «نفارين» عوّل ابراهيم باشا على القيام بنفسه بمهاجمتها وقاد وحداته . وفى الطريق إليها قابله الثوّار فهزمهم وأسر قائدهم و بدّد شملهم . وشدّد الحصار على المدينة برّا و بحرا وكادت تسلم لولا قدوم وحدات من متطوّعى الأروام يبلغ قوامها تسعة آلاف مقاتل أتوا لرفع عروة الحصار عن المدينة وقهر الجيش المصرى .

وهنا شب أوار معركة كان عماد النجاح فيها جرأة ابراهيم وتنظيم جنده. فقد بدأ بتركيب المدافع الكبيرة العيار حول المدينة وترك بعض وحداته تتولى حصارها . ولما علم بقرب الأعداء منه (عشرة أميال) قام برجاله والتقى باليونانيين على مقربة من المدينة، وأمر بأن لا تفتح جنوده النيران إلا إذا صار العدو على مائة متر . فحصد الرصاص الصفوف المتقدّمة وألقى الفزع فى قلوب المهاجمين . ولم يمض قليل حتى اختلت صفوفهم ، و وهنت معنوياتهم ، وتشتتوا شذر مذر فى الجبال والوديان .

كانت هذه المعركة نصرا كبيرا وفوزا مبينا للمصريين ، وقد غنموا فيها أسلحة وفيرة وأسروا أعدادا كبرى من الأسرى ينضوى بينهم عدد موفور من الضباط المدربين . وتعتبر هذه المعركة فاتحة انتصاراته فى تلك الحرب الشعواء . وخير ما لاحظه كتاب الأوروبيين المنصفين — فى هذا السياق — إنسانية الجندى المصرى واتصافه بالنظام والشجاعة والثبات فضلا عن حسن معاملته للأسرى والجرحى .

وكان من نتائج هذه المعركة تشديد الحصار على «نفارين» برّا . ولكن ماذا يجدى هذا الحصار طالما تتلقى المدد والمؤن من البحر . وحسم الأمر بأن قرر ابراهيم الاستيلاء على جزيرة اسفاختريا التى تستر المرفأ ليتمكن من تركيب المدافع بها وإقفال مدخل الميناء ومنع تسلل المدد إليها . وقد أدرك اليونانيون من قبل أهمية هذه الجزيرة فحصنوها بوضع عدّة بطاريات من المدافع . فكان الاستيلاء عليها من أشق الأمور .

إلا أن ابراهيم — بعد أن شاور أركان حربه — رأى أن فتح « نفارين » مستحيل بغير الاستيلاء على اسفاختريا . فصمم على احتلالها وعهد بهذه المهمة إلى سليمان بك الفرنسوى وكان ذلك فى مايو ١٨٢٥

اختار سليمان نخبة من شجعان الجنود[1] واجتاز بهم المياه من « مودون » إلى « نفارين » . وما أن وصلت هذه القوة حتى بادر اليونانيون بتعزيز حاميتهم بمقاتلين وفدوا عليهم .

وتبادل اليونانيون والمصريون نيران المدفعية ، وبالرغم مما أصاب رجال سليمان ، فقد استطاع أن ينزل برجاله عنوة بينما كانت تنهال عليهم النيران من كافة الجوانب . ثم زحفوا ببسالة صوب مواقع المدافع فانتزعوها من رجالها بأسنة رماحهم . ولم تمض ساعات حتى اختفت مقاومة اليونانيين ، واحتلت الجزيرة بعد دفاع مستميت ، وصعد العلم المصرى فوق ساريتها فى زهو وفخار .

ومما يذكر أن المعركة تكشفت عن إصابة سليمان بك بطعنة فى فخذه ، وقتل « تسامادوس » البطل الإغريقى بعد أن حاول عبثا الاسترسال فى القتال . ولما وصل نبأ موته إلى أحد الزعماء ويدعى « تسامادوس » أيضا أقسم أن يثأر له ، فنشر شراع سفنه قاصدا إلى « نفارين » ، فلما صار منها على مدى بضعة أميال علم فى مساء ١٢ مايو بوجود نصف الأسطول المصرى راسيا قبالة مودون فاتجه نحوه وأحرق فرقاطة وسفينتين من نوع الكورفيت وثلاث سفن أخرى صغيرة ودفعت الريح السفن المحترقة نحو بقية

---

(١) الأورطة السادسة .

الأسطول فاحترقت سفينة كبيرة وفرقاطة و ١٣ سفينة من نوع البريك . ثم اتصلت الحريق بالمدينـة فأحرقتها ، ثم بمستودعات البارود فنسفتها وانهار جزء من بناية الحصون على السواحل .

على أن هـذا الفوز البحرى لم ينقذ مدينة « نفارين » من الحصار بل بالعكس شدّد ابراهيم النطاق عليها بالرغم من محاولات اليونانيين فى إنقاذ الرجال والعتاد . وحدث بعد يومين من الحريق المضرم أن حاولت قوّة كبيرة من العـدو الانقضاض على الجنود المصريين ، ولكن هؤلاء كانوا متأهبين فأفقدوهم رشدهم وردّوهم مدحورين . وفرّ العصاة تحت جنح الظلام ، أو ألقـوا بأنفسهم فى الميـاه ، أو سلموا كأسرى . ثم استولى اليأس على المحصورين فى « نفارين » القديمة و « نفارين » الجديدة . فبعث الأوّلون ثم تبعهم الآخرون وفدا من وجوههم يلتمسون من ابراهيم باشا الأمان فأمنهم الأمير على حياتهم ، وتم تسليم «نفارين» للمصريين .

ويذكر المؤرّخ جوان مع ذلك أن تلك الهزائم المتتالية لم تثبط همم الثوار ، فقد لموا شمل بعض رجالهم واحتشدوا فوق جبال كوندورونيا[1] فزحف ابراهيم عليها (٢ يونيو ١٨٢٥) قبل وصول المدد إليه ، وتقدّم فى طليعة فرسانه متسلقا بهم الجبال ، ووزع رجاله على فنن

(١) على مسيرة ١٢ ساعة من مودون .

المرتفعات منتفعين بهيئاتها الطبيعية . وشاءت الأحوال أن تصل وحدات من المشاة فوزعها ابراهيم بين قطاعاته ، كل منها حسب أهميته ، وبدأ يضيق الخناق على اليونانيين . ولما ضاقت بهم الأحوال أخذوا يتسربون ليلا للاعتصام بأكمة « سنياشى » فتبعهم المصريون وصعدوا إلى قمتها تحت وابل النيران الشديدة ووعورة الأرض . حتى إذا بلغوا الى القمة حاصروا المعاقل والمخابئ وقتلوا منهم عددا وفيرا وتسلل من بقى إلى البلدان المجاورة .

وظل إبراهيم يقفو أثر العصابات فى أمكنة عدة . أليس إبراهيم خبيرا بهذا النوع من الحروب ؛ مارسه فى بلاد العرب سنين طويلة ضد الوهابيين ، وفى السودان حينما ذهب لفتحه ، لذلك نراه لا يعنى كثيرا بحرفيات قوانين الحرب التقليدية ، فهو يهاجم الخصم أينما كان إذا وثق برجاله وفهم عدوه .

معركة كالاماتا

وكان من أثر سقوط « نفارين » أن حشد « بتروبك » أمير « مانيا » خمسة آلاف ثائر فى ثغر « كالاماتا » وشرع فى ترميم سورها . فلما انتهى إبراهيم من القضاء على تجمعات الثوار التى سبق الحديث عنها قصد « كالاماتا » وشب القتال عنيفا بين الجانبين ، وأفضى إلى فرار اليونانيين ودخول إبراهيم المدينة (يونيو ١٨٢٥) ،

فأرسل قائدنا فصيلة لاقتفاء أثر الفارين فأدركتهم وقتلوا منهم ٥٣٢ وانتقم المصريون من الزعماء بتخريب قراهم وغنم ماشيتهم ومحصولاتهم .

كما تم الاستيلاء على « أركاديا »[1] .

معركة تريبولتسا

٢٣ يونيو ١٨٢٥

قضى إبراهيم عاما ونصف عام فى المورة وهو لا ينتهى من معركة حتى ينتقل إلى أخرى . وبالرغم من انتصاراته المتوالية لم ير أثرا حاسما لنجاحه . وأخيرا وصل إلى قرار حكيم وشرع فى تنفيذه ؛ ذلك أن تريبولتسا عاصمة المورة طالما استمرت تؤيد الثوار وتمدهم بالمدد ويلهم قادتها الثوار فلا تنتهى العمليات الحربية .

وكان لهذه العاصمة موقع هام لتوسطها شبه الجزيرة ولمناعته وصعوبة الوصول إليه . وعلى هذا يتعين أن يستحوذ عليها فهى شوكة فى جنبه لا يجوز أن تبقى قائمة . فقرر الزحف عليها ؛ مجتازا جبل «تايجنت» .

---

(١) تقع على البحر غربى شبه جزيرة المورة .

ومع صعوبة عبور هـذا الجبل ومضيقه فقـد هزم إبراهيم عصابات الثوار بقيادة « كولوكترونى» و «بتراكو » اللذين وقفا لسدّ الطريق فى وجه إبراهيم فى معركة عنيفة قتل فيها خمسمائة من الثوار . ثم استحوذ المصريون على المدينة التى هجرها أهلها وأشعلوا بين جوانحها النار وانطلقوا مذعورين إلى الجبال .

تابع إبراهيم زحفه لمطاردة الثوار لكى يجهدهم ولا يسمح لهم ولا يسمح لهم بالتجمع فيقووا عليه . فقام جيش مؤلف من خمسمائة فارس ، وكتيبـة مشاة يعززها مدفعان ومدفع هاون ، فوصـل فى يوم ١٨ يونيو سهل «أرجوس» فأحرق ما فيه من أشجار الزيتون وهدم طواحين نابولى وبدأ النضال قويا بين الطرفين ، وتظاهر إبراهيم بالانسحاب حيال ضغط العدو ، ولكن لم يكن ذلك منه إلا حيـلة لاستدراج الثوار إلى أرض المعركة التى تخيرها لهم — يجتذبهم إلى طريق «تريبولتسا» ثم انقض عليهم وجعل يفاجئهم فى كل مناسبة ويقتل منهم عددا وفيرا ويغنم كل ما تقع عليه يده مما يحتاج إليه الجنود فى طعامهم . ولن ننسى فى هذا السبيل أن نذكر أن الطريق الذى سلكه قائدنا كان قليـل موارد المياه ، وكان الطقس حارا للغاية ، فمـات الكثيرون من جنده عطشا ، ثم احتل «باتراس» .

ودانت له شبه جزيرة المورة عدا مدينة «نو بلى» عاصمة حكومة الثوار التى أخذ يعـد العدّة لحصارها . ولكن سرعان ما انصرف عن هذا الأمر حين أرسل إليه القائد رشيد باشا يلتمس منه العون فى حصار «ميسولونجى» وولى وجهه ليغيث القائد .

معركـة ميسولونجى

١٢ أبريل ١٨٢٦

أهميـة الموقع :

كانت لميسولونجى أهمية بالغة القدر، والاستيلاء عليها يؤثر على سير العمليات الحربية فى المورة بأسرها ؛ لأنها تقع على قرب الفتحة الشمالية لخليج «ليبانت» . وكانت تصل منه إلى أهالى سولى مهمات وعتاد الحرب، وتسهل بوساطة الجزر اليونانية وسـائل الاتصال بالهيئات الأوربية الصديقة للثوار . ولا يتسنى الوصول إليها إلا من الشرق أو الشمال . أما من جهتى البحر والغرب فكانت تحميهـا أكوام الرمال والمخـاضات والجزر المتناثرة أوكار القرصان وأهمها دولة «وانداليكوس» و «فاسيلادى» . وكانت فى عام ١٨٢٤ محصنة بسور منيع وكانت مياه ساحلها قليلة الغور ممـا يجعل رسو السفن فيها أمرا عسيرا إلا إذا كانت على مسافة فرسخين من البر . وكانت بطاريات الحصون تشتمل على ثمـانين مدفعا فضلا عن

الخنادق العريضة التي كانت تحيط بأهم أجزاء سور المدينة ، وحتى في حالة رسو السفن بعيدا كانت تقابل أمامها جزيرة «فاسيلادى» المحصنة بالرجال والمدافع .

وكانت حامية ميسولونجى من الثوار يبلغ عددها ٤٠٠٠ مقاتل[1] .

ولتلك الأهمية الكبرى كان الاستيلاء على ميسولونجى يساوى الاستيلاء على نصف بلاد اليونان .

المعركة :

ولما طالب ابراهيم أهالى ميسولونجى أن يصدعوا للتسليم ورفضوا ، بادر الجيش المصرى بفتح النار فورا عليهم ، وظل يواصل إطلاقها ليل نهار . فتهاوت المبانى تنعى الدمار ، وخرج أهلها من بين الأنقاض مذعورين ، بينما استبسل حماة المدينة على الأسوار ينافحون عنها ولسان حالهم يقول :

” لا يزال لدينا الخبز والخرطوش ، وسنقاوم الباشا المصرى حتى النهاية ! “ .

وفى مساء الثامن من فبراير قسم ابراهيم جنوده إلى قسمين ، ودفع بالقسم الأول على البرج الأتم تسليحا ، فأمسك الثوار فى مستهل

(١) مصر فى القرن التاسع عشر ، جوان ص ٧٢٢ .

الأمر عن إطلاق النيران حتى صار المصريون فى منطقة القتال ، وهنا أصلوهم بطلقات شديدة ، وشنوا عليهم هجوما مفاجئا مريعا اضطرهم إلى الارتداد . وتقدم القسم الثانى فاستدرجوهم إلى أرض مبثوثة بالألغام ذهبت ضحيتها الصفوف الأولى وأكرهت الباقى على التراجع . و بلغت خسارة ابراهيم فى هذه المعركة الأولى خمسمائة جندى . ثم حدثت معركة تالية كان عدد ضحاياها ثلاثمائة .

إزاء ذلك عدل ابراهيم عن هذه الطريقة فى الهجوم ، وشرع فى كشف أرض المعركة بنفسه و بصحبته مهندسه العسكرى السنيور « روميئى » الإيطالى الجنسية . فاتفقا على غلق المسالك المؤدية إلى ميسولونجى برا و بحرا . وكان الترك قد أهملوا سد بعض النقط البحرية التى كانت تيسر توصيل المؤن للمحاصرين عن طريق أصدقائهم الأوروبيين . كما أسرع فى إنشاء حوالى ١٥٠ سفينة خفيفة مفرطحة القاع ليسهل استخدامها فى المياه الضحلة[1] . ولما تم صنعها أنزل بها كتيبتين من الآلاى الخامس والثامن ،

---

(١) راجع الوثيقة التركية ١٠٠ ، محفظة رقم ١٠ بتاريخ ٣ شعبان سنة ١٢٤١ هـ (١٣ مايو سنة ١٨٢٦) فى محفوظات سراى عابدين وتتضمن تعليمات محرم بك قائد الأسطول المصرى الى قبطانات السفن لإنشاء هذه السفن بسرعة نظرا لأهمية المهمة التى هى من أجل الخدم التى تقدم للدين المبين والسلطة السنية .

فتقدمت بها تحت حماية مدافع أسطوله حتى وصلت إلى مرمى القربينات من جزيرة «أنتوليكوس» القائمة فى الناحية الغربية من حصن مسلنك .

الاستيلاء على جزيرتى دولماس وأنتوليكوس :

وكان لهاتين الجزيرتين فائدة استراتيجية كبرى للهاجمين والمدافعين . وكانت ثانيتهما تقع فوق صخرة معزولة تحمى الطريق الموصل إلى ميسولونجى ويمنع موقعها الدنو الى المدينة المحاصرة ، ويبعد الاثنان بعضهما عن بعض حوالى نصف ميل . وقد أقام فيهما الثوار طابيات ركزوا فيها ستة مدافع ووضعوا بها حوالى ثلاثمائة من أشداء رجالهم . وقد روعى الاستيلاء على «دولماس» تمهيدا للاستيلاء على «أنتوليكوس» كما عينت لمهاجمة الجزيرة بحرا قوات أعدّ تدريبها على أساليب الفدائيين بقيادة حسين بك وابراهيم أغا وسليم أغا (٨ جى آلاى) وغيرهم . ثم انتقل معهم ابراهيم باشا وأخذ فى تشجيع العساكر بصوته الداوى وهو يحرضهم على مهاجمة الثوار . فاندفعوا نحو الجزيرة يخوضون عباب الماء والطين . ولما أصبحوا على مقربة من شواطئها طفق الثوار يصوّبون عليهم نيران المدافع والبنادق وكان الجند يتقدمون تحت وابل الطلقات واجتازوا ثلاثة مستنقعات ثم توقفوا لدى المستنقع

الرابع القريب من إحدى بطاريات الثوار . على أن ثمة قوة أخرى من الجنود كانوا يتقدمون الى الأمام مستبسلين رغم ما حاق بهم من خسائر، ويقابلون بروح الشجاعة والبطولة ويضحون بأنفسهم فى سبيل الدين والدولة[1] . ومثل هذه الصورة حرية بالإبانة لأنها صورة رواعة من الشجاعة لضباط وجنود هذه الكتيبة ، ولذا يطيب لنا أن ننقلها بمعالمها الأولى كما تأتت فى الأصل الوارد بالوثيقة .

" وفى تلك الآونة كان حامل علم الكتيبة ١٠ (٥ جى آ لاى مشاة) التى بقيادة سليم بك قدخاض المياه الموحلة حتى بلغ منتصف الطريق ،وهناك غاص فى الوحول وعجز عن الحركة ،وإذ ذاك أسرع إليه حمزة أغا أحد بكباشية هذه الكتيبة وتناول منه العلم ، وما أن سار به مسافة صغيرة حتى كان حامل العلم قد تخلص من الوحل ولحق به ، ولما أراد أن يستعيد منه العلم رماه الثوار (الكفار فى الأصل) بطلقة وجرحوه حيث ظل العلم مع حمزة أغا . غير أن صول قول أغاسى الكتيبة المذكورة ألح على حمزة أغا بتسليمه العلم فسلمه إليه . ولكن الصول أغاسى بعد أن اجتاز والعلم بيده بعض الطريق تسرب الماء إلى ملابسه وامتلأت به وتعذر

---

(١) الوثيقة الآنفة .

عليه أن يتقدم بسرعة، فعاد البكباشى حمزة أغا وتناول منه العلم وتقدم به. ولما كان يهم بتركيز العلم على طابية الكفار رماه هؤلاء هو الآخر بطلقة فجرح فتناوله منه آنذاك أحد المصريين أبناء العرب وهو الملازم الأول لدى اليوزباشى الرابع ولكنه أصيب فى موضعين من جسمه بجروح أحد جنود الأومباشى الرابع لدى اليوزباشى الخامس وتسلم منه العلم غير أنه أصيب بجرح فتناوله الجاويش الثانى حسين . وما أن تقدم به قليلا حتى أصيب بجروح أربعة فى مواضع من جسمه . فأسرع أحد جنود الأونباشى الأول لدى اليوزباشى الخامس وتسلم العلم منه ولكنه سرعان ما أصيب هو الآخر بجرح فتقدم الأونباشى لدى اليوزباشى السادس وهو الأونباشى حسين وأخذ يحاول تثبيت العلم فى طابية الكفار، على أن عساكر الروم الأناضوليين وعساكر «كريت» كانوا على وشك الهزيمة، وقد تخلفوا عن تتبع جنودنا النظاميين وحاولوا العودة إلى البر، وما أن لمح منهم ذلك إبراهيم باشا حتى امتشق حسامه وصاح بالقوم :

"لست أنا الذى يولى الأدبار يوم القتال؛ إنما أنا من ترونه يخوض غمار الوغى بين الدم والوحل" .

ثم نزل عن صهوة جواده ، وتقدم نحو الماء الوحل حتى غاص فيه إلى عنقه ، وأخذ يضرب بسيفه بعض الجند الذين

ابتغوا العودة إلى البر ، و يقوّى قلوب أهل الإسلام ويحثهم على مقاتلة الكفار ، ويعلن أن الذين يتقاعدون عن مقاتلة الكفار لن ينجوا من سيفه . فثارت الحميـة فى نفوس الجند ؛ واعتمدوا على الله وهتفوا جميعا : الله . الله . واقتحموا المـاء فى طريقهم إلى الجزيرة . و بعد أن تخبط معظمهم فى الوحل واعتمد البعض الآخر على السباحة ، بلغوا شاطئ الجزيرة ، وفى تلك الآونة كان حسين بك الذى عهد إليه بمهاجمة الجزيرة من ناحية البحر قد وصل بالسفن التى تقل جنوده إلى مسافة ٥٠ خطوة من ذوابى الجزيرة. وأخذ يصلى الكفار نيران المدافع والبنادق ، ويبث الرعب فى قلوبهم وإذا ذاك أبدت الجنود القادمة من طريق البر روح البسالة وساعدتها القوة البحرية فى القتال ، وتقدم الأغا الجوقدار من الجهة اليمنى بينما زحف البكباشى عثمان أغا من الجهة اليسرى وهاجموا متاريس العدو واستولوا عليهـا . وعلى أثر ذلك اتحدت جميع القوات الزاحفة برا وبحرا وأمعنت فى قتال العدو الذى منى بهزيمة تامة وكان عدده ثلاثمائة فلم ينج منهم سوى عشرين وحاول بعضهم الوصول إلى جزيرة «انتوليكوس» .

وقد استشهد وجرح فى هذه المعركة عدد من الضباط والجند جاء ذكرهم فى الوثيقة المذكورة .

ومع كل الصعاب التى جابهت ابراهيم ، فإنه بعد استراحة قصيرة ، تابع الهجوم على الجزيرة الأخرى «انتوليكوس» وكلف رجال الآلاى الثامن بهذه المهمة بقيادة قائده حسين بك فطوقوها من جميع جهاتها ، وراحوا يضيقون الخناق على العدو . وأخيرا وجد المعتصمون بالجزيرة أن لا حيلة لهم سوى التسليم ، فأرسلوا من يطلب منحهم الأمان فأجيبوا إلى طلبهم على شرط أن يسلموا جل أسلحتهم . وقد أشرف حسين بك على طرد العدو من الجزيرة ووضع يده على الغنائم الوفيرة . وبإخلائها أرسل الأسرى من المقاتلين إلى «باتيه» .

وبعد بضعة أيام ، تساقط حصن فاسيلادى بأيدى المصريين ، فكان آخر الحصون التى حمت ميسولونغى ، وبذلك حرمت من جميع السبل التى كانت تصلها بالبحر . وأحاطها إبراهيم برا بحصار شديد ، وصار يضيق خطوطه يوما أثر يوم ، بينا كانت الحال تتطور من سئ إلى أسوأ ، وفقد العدو كل أمل فى فك الحصار ، ومع ذلك لم يخطر برؤوس جنوده فكرة الإذعان ، رغم ما حل بزملائهم فى الحصون التى تهاوت كليلة . وضرب الجوع على أهلها حتى أنهم لجأوا إلى أكل لحوم الخيل والحشائش البحرية ، ومات الضعفاء منهم ، وسقط الجنود مغشيا عليهم فى مواقعهم

العسكرية ، وكانت تقـوم بين آن وآخر بمناوشات صـغيرة مات فى إحداها القائد حسين بك أشجع ضباط إبراهيم ، عقب إصابته برصاصة فى جبهته .

وفى الخامس من ابريل تقدمت أعمال الحصار ، وضاق الخناق بالمحصورين الذين عرضوا ثلاث مرات على ابراهيم أن يخرجوا ومعهم أسلحتهم وعتادهم فأبى . وعندما فقدوا كل أمل فى وصول النجدة وخلت ميسولونجى حتى من العشب ، تأهبوا للخروج الذى تخيروه لأنفسهم .

وكتبوا — بعد المشاورة — إلى « كاراسكاكس » ، أحد رؤساء الثوار خارج المدينة ، أنهم اعتزموا مبارحة مدينتهم فى لدى غروب الثـانى عشر من ابريل ، وكلفوه أن ينقل فى ذلك اليوم الى جبل « أراسينث » ، وأن ينبههم باقترابه بطلقات قوية من البنادق حتى يمكنهم بمعاونة هجوم من الجانبين فى وقت واحد من أن يشـقوا لهم ممرا بين صفوف الأعداء .

وعقب إرسال هذا الكتاب طفقوا يتأهبون للرحيل .

وقد أظهر سكان المدينة — الضعفاء والشـيوخ — من غير المقاتلين وطنية وحمية قلما عرف لها نظير فى التاريخ . فقد اتفقوا على أن لا يبقوا أحياء ، وذلك بأن يلجأوا الى جل المبـانى و إلى

جل المبانى و إلى الأرض الملغومة و ينتظروا إقبال المصريين . وحينما يكونون على مرمى مقذوفاتهم يقدّمون أنفسهم طعمة للنيران فداء عن ميسولونجى ولا ينفكون يردّدون كلمتهم : "الموت و بأيدينا السـلاح" .

و بذا سقطت ميسولونجى ودخلها إبراهيم باشا فى الثالث والعشرين من شهر ابريل عام ١٨٢٦ وقد استنزف الاستيلاء عليها عشرين ألف مقاتل تركى وستة آلاف مصرى ، الشىء الذى جعل إبراهيم لا يطالب رجاله بتضحيات أخرى .

نفارين

٢٠ أكتوبر ١٨٢٧

قضى إبراهيم حوالى العام فى المورة وهو يشتبك مع الأعداء فى معارك شتى . وكان يتحين الفرصة لإعادة تنظيم قواته تمهيدا للقضاء الأخير على العصاة فى كافة مناحى اليونان .

وفى خلال تلك الشهور كانت تصل إليه الامدادات من اسكندرية .

وأخيرا تدخلت الدول الأوربية بشكل حاسم ، إذ رأت أن النتيجة المباشرة لنصر المصريين أن يصبح شرق البحر المتوسط بحيرة مصرية دعامتها جزيرة كريت التى يحكمها والى مصر .

اتفقت انجلترة وفرنسة وروسيا على إرسال أسطول بقيادة أمير البحر كدرنجتون لإيقاف الحركات العسكرية للجيش المصرى والعثمانى .

وفى تلك الآونة استطاعت بعض سفائن الأسطول الأوربى المشترك دخول ميناء نفارين وكان راسيا فيها الأسطول المصرى العثمانى .

وتصادف أن اقتربت إحدى السفن التركية من إحدى البوارج الانجليزية فأرسلت هذه زورقا تأمرها بالابتعاد ، فجاوبتها بتصويب النيران الشديدة عليه . وفى الحال وجهت سفن الدول نيرانها على السفن المصرية والعثمانية لمدة ثلاث ساعات وكانت مأساة فى الواقع . فقد دمرت معظم سفننا .

ولم تختم هذه النكبة عند هذا الموقف ، فقد وصل كدرنجتون الى الاسكندرية ، وأنذر محمد على بتخريب الميناء إذا لم يخل ابراهيم المورة .

وكان ابراهيم منهمكا فى تهدئة داخل المورة . فأصبح بعد نفارين كما كان نابليون فى مصر بعد معركة « أبي قير » البحرية .

لقد حدثت المؤامرة الدنيئة الوحشية ، وسطرت حجة الخيانة فى تاريخ الدول الأوربية ، واستعصى على ابراهيم وصول المدد اليه بعد هذه الجريمة .

واتصلت الدولتان فرنسا وانجلترة بمحمد على واتفقتا معه فى ٣ أغسطس سنة ١٨٢٨ على سحب جيوشه وإخلاء المورة . فأمر الباشا ابنه بالجلاء ، وكان قد نزل الى البر اليونانى الأميرال الفرنسى لاميزون على رأس جيش فرنسى قوامه ١٥,٠٠٠ ليكره البطل على الجلاء .

وعاد ابراهيم باشا الى مصر، واعترفت الدول باستقلال اليونان .

وبهذا يتبدى شطر من أعمال ابراهيم القائد المحنك الماهر، والجندى الباسل، كان عقلا حربيا فنيا قويا . قد يمكن القول أنه كان قاسيا ولكنه كان عادلا فى قسوة يكافئ و يقتص فى نصفة ونزاهة . ولذلك أحبه جنوده حبا خالصا .

وفى هذا السياق ينبغى أن نشير الى أن خسائر مصر فى اليونان كانت فادحة ، ولكن هذه الحرب قد أكسبت مصر بلا جدال مكانة معنوية كبرى ؛ فقد كانت أول حرب أوربية خاض الجيش المصرى غمارها و برهن فيها على كفاءته . فلا غرو أن ارتفع شأن مصر الدولى .

ابراهيم باشا فى حرب الشام

١٨٣٢ — ١٨٣٩

إن أسباب الحرب المصرية التركية كثيرة متشعبة، إذ لايخفى أن محمدا عليا تقلد ولاية مصر رغم أنف الباب العالى، لذلك كان عداء السلطان محمود ورجال حكومته لباشا مصر متمكنا، وقد حاولوا عزله مرارا ولكنهم لم يفلحوا فى بلوغ غرضهم. واشتد العداء بعد انتهاء الحرب اليونانية، عقب أن ارتقت مكانة مصر فى المعترك الدولى.

وفضلا عن ذلك، فقد كان عبد الله باشا الجزار، والى عكاء، حاكما ذا مطامح واسعة، رغب فى ضم ولاية الشام الى مكة، وكثيرا ما تدخل بين والى مصر وشعبه. فأصبح الواليان المتجاوران عدوين، وصارا يكيدان أحدهما للآخر حتى اتهم محمد على عبد الله باشا بأنه كان يشجع تحويل التجارة المصرية الى طريق سيناء بدلا من إصدارها بطريق الثغور المصرية.

ومما يثير الدهشة أن كان لمحمد على يد الفضل على خصمه، فكثيرا ما تدخل بينه وبين السلطان لإصلاح ذات البين بينهما!

وأخيرا وقعت الحرب بين محمد على وعبد الله ، وسار ابراهيم على رأس جيشه الى الشام ، فكان ذلك داعيا أوربا الى التحالف ضده مرة ثانية . وإذا نحن قلنا ضده فلأن حياة ابراهيم هى فى حياة محمد على وأعمال محمد على . وكان هذا الجندى المقدام ، والقائد البطل ، والعالم الحربى ، هو الساعد الأيمن فى بناء مجد محمد على .

وكانت أول حركة حربية يتعين عليه القيام بها هى عملية الاستيلاء على حصن عكاء الذى فشل قبالته القائد العظيم بونابرت .

لم يجزع ابراهيم أمام مناعة هذا الحصن ، بل لقد قال : "اذا كان نابليون قد أخفق أمام عكاء فإنى سأكون أسعد منه حظا" . فتحققت نبوءته .

وكان محمد على قد أعدّ للحرب عدّتها ، فأنشأ جيشا لجبا على أحدث الأساليب ، وجهز أسطولا قويا . وصار على قدم الاستعداد فى خريف عام ١٨٣١ .

وانطلق الجيش بقيادة اللواء ابراهيم يكن فى ٢ نوفمبر ١٨٣١ ، ثم أقلع الأسطول فى رابعه . وركب ابراهيم متن البحر على السفينة «قولة» — وهى فرقاطة شيدت فى ميناء أركانجل — ميمما ثغر يافا .

أمير اللواء ابراهيم يكن باشا

وأراد الله أن يكتب للجيش المصرى والأسطول المصرى النصر الباهر .

ففى ٨ نوفمبر سنة ١٨٣١ دخل المصريون ثغر يافا . وفى ١٣ نوفمبر من السنة نفسها احتلوا حيفا . وحين قدم الخامس من ابريل استحوذ المصريون على طرابلس وكانوا قبل ذلك قد احتلوا (صور وصيدا وبيروت) .

و فى ١٤ ابريل انتصر المصريون فى سهل الزراعة . وفى السابع والعشرين من الشهر التالى — بعد حصار دام من ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٣١ الى ٢٧ مايو سنة ١٨٣٢ — سقطت عكاء وفيها أسر المصريون عبد الله والى عكا نفسه بعد أن دافع عنها دفاع الأبطال ، و بعد أن استشهد من جنوده ٥٦٠٠ من ٦٠٠٠ ، وقد أرسله ابراهيم باشا الى مصر حيث عين له محمد على جزيرة الروضة مقاما . ولما وصل خبر سقوط عكاء الى مصر أمر محمد على باشا أن تقام الأفراح ثلاث أيام كاملة تطلق فى خلالها مدافع القلاع والبنادق ثلاث مرات فى كل يوم من الأيام الثلاثة ، كما أمر بالعفو عن المسجونين والمنفيين وأطلق سراحهم ليعم الفرح أهالى مصر قاطبة . وفى ١٣ يونيو سنة ١٨٣٢ دخل الجيش المصرى دمشق واتخذها ابراهيم مقرا لحكومته . وفى ٨ يوليو انتصر المصريون فى حمص وقد دامت

هذه المعركة ثلاث ساعات ونصف الساعة ، وأبدى المصريون من ضروب البسالة ما أدهش الترك . ومن آيات بسالتهم أن أصابت أحد الخيالة واسمه منصور ضربة بترت زراعه غير أنه استمر يقاتل على رأس الخيالة وهو يقاسى لهثات الموت فى أثناء المعمعة .

وفى ١٤ يوليو استولوا على حماه . وفى ذات اليوم انسلوا إلى حلب وأسروا حاميتها وجنودها وعددهم الف . وفى ٣٠ يوليو انتصروا فى بيلان بعد معركة دامت ثلاث ساعات سافر بعدها الفرسان المصريون ، تحت إمرة عباس باشا ، ودخلوا اسكندرونة ثم أنطاكية فاتخذها ابراهيم باشا مقرا له وبنى فيها قصرا فخما وثكنات تأوى ٥٠٠٠ جندى . وبذا تم لمحمد على فتح سورية .

إبراهيم الرجل الفاضل

وإذا كان علم ابراهيم بالطبيعة البشرية قد أكسبه معونة الطوائف الإسلامية فان تسامحه عاد عليه بصداقة المسيحيين من أهل البلاد المقدسة ؛ من ذلك أنه قدم عليه بعد بضعة أيام من استيلائه على حيفا جماعة من رهبان الكرمل كانوا يريدون أن ينشؤا لهم ديرا على ذلك الجبل القريب من هذا البلد ، ويظهر أنهم بعد أن جمعوا بعض مواد البناء اللازمة لهم علم عبد الله بما انتووه ، فرأى أن موضع الدير يصلح لأن يبنى فيه لنفسه قصرا جميلا فاستولى على موارد البناء ليبنى

بها ذلك القصر . فجاء الرهبان الى ابراهيم يلتمسون أن يأذن لهم بتنفيذ غرضهم الأول فأجابهم الى ماطلبوه وقال لهم : "خذوا كل ماتجدونه من مواد البناء واهدموا القصر إذا كان هدمه يتفق مع أغراضكم" .

ولم يقنع ابراهيم بهزيمة العدو، بل وجه عنايته الى تنظيم ادارة البلاد التى فتحها . فاختار فى ١٤ يوليو عشرين من أعيان دمشق وألف منهم مجلسا لحكم الولاية . على أن ابراهيم رغم تفكيره فيما عليه من التبعة للمغلوبين لم ينس قط أنه جندى فى الميدان وأن واجبه الأول هو أن يسحق قوة أعدائه فوجه جل همه الى هذا الهدف .

وكان محمد على — بعد هذا النصر — يرجو أن يسوى أمره مع السلطان ولذلك كان من رأيه ألا يتعجل ابراهيم الحوادث وبخاصة لأن تقدم الجيش المصرى السريع يحتم عليه الآن أن يتريث حتى تنظم ثمار الفتح ، ولولا أن سيل الانتصارات الجارف متدفقا فى سيره دون تمهل لما كان ثمة حاجة الى التريث ، ولكن رغبة الباشا فى أن لا تتعسر الأمور على رجال السياسة بسبب أعمال ولده جعلت ابراهيم فى موقف الدفاع أربعة أشهر بعد موقعة بيلان . وبينما كان هذا القائد النشط واقفا موقف الانتظار وجه عنايته الى المسائل الادارية ، فقسم الشام ثلاث مناطق وجعل مراكز الحكم المدنية والعسكرية فيها حلب وصيدا ودمشق ، واستتب الأمن والنظام

فى مناحى البلاد بفضل سياسته المتنورة، وخير شاهد على هذه السياسة إعلانه المؤرخ ٥ أغسطس ١٨٣٢ الذى نشره على أهل الشام لما دخلت جنوده بيت المقدس والذى يقول فيه :

" فى القدس من المعابد والآثار مايجعلها كعبة يحج اليها المسيحيون واليهود من أبعد الأقطار، ومن حق جموع الحجاج أن تشكو من الضرائب الفادحه التى تفرض عليهم وتجبى منهم فى الطرقات العامة. وقد صحت عزيمتى على إلغاء هذه العادة ولذلك آمر الحكام المصريين فى ولاية صيدا ومراكز القدس وطرابلس وما جاورهما من المناطق الواقعة على البحر الأبيض المتوسط أن يمتنعوا عن جباية الضرائب على اختلاف أنواعها سواء منها ما كان يجبى فى الطريق أو غيرها من أماكن، وكذلك أدعو جميع الحكام المحليين أن لا يفرضوا ضرائب غير مشروعة على رجال الدين المسيحيين الذين يؤمون الأماكن المقدسه ليؤدوا شعائر دينهم" .

ولو أن مرسوما كهذا صدر بعد أن ساد السلام واطمأن الناس شهورا عدة لكان دليلا على أن صاحبه قد أشبعت نفسه روح التسامح والحرية، فما بالك وهو صادر وسط دوى المدافع. إنه ليدل على أن الذى أصدره كان رجل حرب وسياسة يدير الحركات الحربية بعقله ويعطف على الناس بقلبه .

إبراهيم فى معركة قونية

وبعد أن انتصر الجيش المصرى فى وقعتى حمص وبيلان توغل ابراهيم فى الأناضول واحتل طرسوس واطنه ثم احتل مضيق « كولك بوغاز » وتابع زحفه فالتقى بقوة كبيرة من الجيش العثمانى تحت قيادة والى قونية ووالى أطنة وكانت القوة المصرية تحت قيادة سليم الجزائرى بك وابراهيم أغا[1] . فهجمت القوة التركية وتلقتها القوة المصرية بنار آكلة ، وقاتلتها قتالا شديدا انتهى بانكسار العثمانيين وانتصار المصريين . وتابع المصريون زحفهم والتقوا مرة أخرى بالعثمانيين فى « اولوقشلة » فقاتلوهم وشتتوهم ثم زحفوا الى أن وصلوا اريكلى فاحتلوها . وكان لهذه الانتصارات دوى عظيم فى آسيا وفى أوربا وفى افريقيا .

فخشى السلطان على عرشه ، واستدعى رشيد محمد باشا الذى كان قائدا عاما لجيوش تركيا فى حرب المورة واشتهر بانتصاره فى ٦ مايو ١٨٢٧ على الجيش اليونانى . وأسند اليه الصدارة العظمى وولاه على مصر وجدة وكريت وعلى جميع الولايات والبلاد التى انتزعها منه محمد على وابراهيم واستثار حميته أكثر بأن قال له إن كل ما ملك محمد على وابراهيم من مال ومتاع يكون له .

---

(١) فرنسى الأصل واسمه Rochmann

وفى يوم ٢٨ نوفمبر سنة ١٨٣٢ احتل الجيش المصرى قونية[١]. وفى ٢١ ديسمبر هزم الجيش العثمانى فى قونية وكان الجيش بقيادة ابراهيم وسليمان الفرنساوى وابراهيم بك المناسترلى وأحمد بك المنكلى وأحمد بك الاستامبولى . وقد وقع الصدر الأعظم أسيرا فى أيدى البدو الذين كانوا مع ابراهيم . ولم يغفل ابراهيم حتى فى ساعة النصر عن خطة والده السياسية، ومع أنه رأى الصدر الأعظم أسيرا فى يديه فإنه لم ينس واجبه حيال أبيه . فنظر الى أسيره نظرته الى ممثل جلالة السلطان رئيس الدولة الأعلى، ورد اليه سلاحه الذى كان قد انتزع منه خلال النهار، ثم سار بنفسه نحو عدوه المغلوب ليقدم له واجب الإجلال، وأصر على أن يكون للشير العثمانى المكان الأول .

وفى ٢ فبراير ١٨٣٣ احتل الجيش المصرى كوتاهية وأصبح على مبعدة خمسين فرسخا من الآستانة[٢] . وفى ٢٨ فبراير دخل المصريون أزمير . وقد استنجد السلطان بروسيا فأرسل القيصر

---

(١) من المصادفات التاريخية أنه فى عهد الملك المؤيد استولى ابنه ابراهيم على قونية أيضا وفى نفس اليوم (موقعة قونية) مات والد سليمان الفرنساوى .

(٢) كان للجيش المصرى فى ذياك العهد قلم مطبوعات يذيع باللغة العربية والتركية والفرنسية جميع أوامر ابراهيم باشا وجميع انتصاراته حتى يسهل على أهالى فلسطين والشام والأناضول تتبع انتصارات الجيش المصرى .

أسطوله و ١٣٠٠٠ جندى من جيشه وأمضيت معاهدة (هنكار أسكله سى) بين الدولتين كانت أشبه شىء بحماية . فخافت انجلترة وفرنسا عاقبة تنفيذ شروط هذه المعاهدة ، فوجهتا جهودهما الى التوفيق بين السلطان ومحمد على وإقناع الأخير بقبول ولاية عكا والقدس وطرابلس ونابلس علاوة على ولاية مصر وجدة وكريت . وهددتاه بمظاهرة كبيرة اشترك فيها الأسطولان الانجليزى والفرنساوى قبالة ثغر الاسكندرية اذا رفض . إلا أن محمدا عليا أصر على سورية كلها وولاية أطنة كلها أيضا وجزء من بلاد العراق . وبعد مساومات وتهديدات ومفاوضات قبل السلطان فى الرابع من مايو ١٨٣٣ إمضاء معاهدة « كوتاهية » التى بها قبل أن تكون ولاية مصر وراثية فى ذرية محمد على ، وتنازل لمحمد على عن ولاية سورية كلها وتنازل لإبراهيم عن ولاية أطنة وجدة وعينه شيخ الحرم المكى ، واسترد من محمد على جزيرة قبرص وأخذ عليه عهدا بعدم استقلاله عن الدولة العلية .

وبمعاهدة « كوتاهية » هذه بسط محمد على سلطانه على مصر والسودان وبلاد العرب وفلسطين وسورية وولايه أطنة . فكانت امبراطورية واسعة الأرجاء مساحتها تزيد على نصف أوربا . وبعد توقيع هذه المعاهدة أطلق محمد على سراح عبد الله باشا والى عكاء . وقد لخص المؤرخ محمد صبرى ما تنطوى عليه من المعانى بقوله :

"يرجع معظم الفضل فيما اشتملت عليه معاهدة كوتاهية من المزايا الى خطة ابراهيم الذى جعل مصير الآستانة معلقا فى كفة الميزان والذى أطار قلب السلطان، ولكن هذا الصلح لم يكن هو الصلح الخليق بهذا النصر المبين، بل كان صلحا مزعزعا واهى الأساس تنقصه جميع عوامل الثبات" .

كان ابراهيم يعلم أن معاهدة «كوتاهية» ليست إلا هدنة لا أكثر ولا أقل ولكنه مع هذا شرع فى حكم بلاد الشام على أنها بلاد قد ضمت نهائيا الى مصر لا على أنها بلاد محتلة. وقد كشفت الحرب المصرية السورية عن شىء جديد قلما رآه الناس فى جيش أوربى . وينـدر أن يوجد فى جيش إسلامى . فقد كان يسيطر كل السيطرة على علاقة جيشه بالأهالى الملكيين ويحتم على جنده أن يدفعوا ما يأخذونه منهم فى سيرهم وكان ابراهيم بطبيعته زارعا قبل كل شىء، ولذلك كانت الزراعة محببة اليه وقد سعى الى إدخال أنواع جديدة من النبات فى بلاد الشام. وأما عن اختلاطه برجاله فيقول فى ذلك «البارون بوالكنت» :

"وكان ابراهيم كثير الاختلاط برجاله يعيش معهم ويلعب وإياهم ويثنى على الأمة التى أنجبتهم حتى صاروا يحسبونه درعا يحتمون به من ضباطهم . وبلغ من أمرهم أنهم كانوا يرفضون تنفيذ أوامرهم ويقولون أنهم سيرفعون أمرهم الى ابراهيم" .

وقد يكون فى هـذا القول مغالاة ، فليس يستطيع إنسان أن يقود جنوده من نصر الى نصر و يكتسح أعداءه أمامه كما اكتسح ابراهيم اذا لم يكن شديد الحرص على النظام .

وقال انجلـيزى آخر عن ابراهيم وحكومته : " إن مصالح هذا القطر (الشام) كلها هى موضع عناية ابراهيم باشا ولقد جلست اليه أحدثه بضع ساعات فألفيته ممتعا كأبيه بل أكثر منه ، ألفيته صرحا نزيها حازما ، وأشدّ من أبيه رغبة فى العمل لخير هـذا الشعب ، ووجدت جنوده فى أحسن حال من النظام وتبلغ عدّتهم ٢٥ ألفا من المشاة و ٥ آلاف من الفرسان ومعهم اثنتا عشرة بطارية من مدافع الميدان والناس يهابونهم و إن كان سلوكهم طيبا بوجه عام .

ابراهيم بطـــل نزيب

بذلت تركيا كل الوسائل بعـد " كوتاهية " لتقوية جيشها و إمداد الثائرين بالمقاطعات السورية للخروج عن طاعة ابراهيم ورجال حكومته ورغم قيام مفاوضات بين الدولتين تركيا ومصر فقد أخفقت ولم يتفق الطرفان على شىء . وفى خلال ذلك الوقت كانت وسائل البـاب العالى تزداد يوما بعـد يوم فى أنحاء البـلاد الشامية . فعزم محمـد على على إعلان الاستقلال واستدعى وكلاء الدول الأجنبية فى مصر وأنبأهم بعزمه ، وكان هذا الاعلان فى مايو

١٨٣٨ ، وفى يناير ١٨٣٩ عقد الباب العالى مجلسا حربيا قرر فيه إعداد ثمانين ألف جندى بقيادة حافظ باشا ، فلما اكتمل تجهيزها وتعبئتها وتوزيعها بدأت القوات الأمامية منها تتحرش بالنقط المصرية واحتلت ستين قرية وراء عينتاب . وكان محمد على فى ذلك الحين فى السودان فأسرع الى القاهرة وأذاع منشورا أرسله لجميع سفراء الدول أعلن فيه عدم رغبته فى الحرب وعدم إقدامه على عمل عدائى ورغبته فى الاستقلال وأنه متمسك بهذه المبادئ .

وفى يونيو ١٨٣٩ خوّل محمد على لابنه ابراهيم الحق المطلق فى أن يبدأ الحرب أو يحافظ على السلم حسبما تمليه عليه الظروف . وبدأت المناوشات بين مقدمتى الجيشين واستمرت الى آخر الأسبوع الأول من شهر يونيو سنة ١٨٣٩ ، وبدأ الأسبوع الثانى وتراسل فيه القائدان ولكن لم تكن هناك ثمة فائدة . ففى يونيو استولى الجيش التركى على عينتاب ، ولم ير المصريون بدّا من مقابلة العدوان بمثله فتقدموا فى يوم ٢٠ يونيو وطردوا العثمانيين من بلدة مزار بعد أن ضربوا القوة العثمانية بالمدافع المصرية ضربا محكما وغنم المصريون ذخائر ومؤنا ومهمات كثيرة للغاية ووقعت خزانة القائد فى أيديهم وكان بين الترك أربعة وزراء . وفى ٢١ يونيو قام ابراهيم وسليمان على رأس قوة مؤلفة من ١٥٠٠ بدوى وأربع أورط خيالة

وبطاريتين من المدافع الخفيفة لكشف مواقع العدو فى " نزيب " فقاومت تلك القوة مدفعية الأتراك الخفيفة والخيالة النظامية وقوة من غير النظاميين . واستطاع القائدان كشف مواقع الأتراك وتأكدا من تعذر الهجوم عليها من الأمام ، وقررت قيادة الجيش المصرى تخلصا من هذا عمل حركة التفاف حول الجيش التركى من الجناح الأيسر له وبذا تقاتله من الخلف . وفى يوم ٢٢ يونيو عبر الجيش المصرى نهر مزار بجوار البلدة المسماة بهذا الاسم وسار الى جهة الشرق لأخذ الموقع الذى صمم على انتزاعه خلف الجيش التركى وفى أثناء القيام بحركة الالتفاف وعبور كوبرى كرسين الواقع على نهر كرسين ، أقام ابراهيم معسكرا ليلا فى البر الأيسر لنهر مزار ومكث فيه يوم ٢٣ يونيو ١٨٣٩ يستعد للقتال ، وفى ليلة هذا اليوم هاجم الأتراك المصريين . وفى صباح يوم ٢٤ يونيو اتجه الجيش المصرى نحو الشمال وترك معسكره المذكور وكان الأتراك قد عسكروا بقواتهم بجوار « نزيب » ووصل المصريون الى المواقع التى رغبوا فيها مهاجمة الأتراك وهجموا عليهم واحتدمت المعركة بين الجيشين . وفى غروب هذا اليوم (٢٣ يونيو) دعا ابراهيم ضباط جيشه وقام فى وسطهم خطيبا ذاكرا ما ناله الجيش المصرى من الشهرة فى أنحاء العالم بفتوحاته وغزواته وانتصاراته العديدة ثم ، لفت أنظارهم الى أن

أمير اللواء أحمد المنكلى باشا

يوم الغد (٢٤ يونيو) هو يوم فصل الخطاب ، إما النصر والمجد ، أو الموت والعار . ولم تمض ساعات قلائل حتى وقع الاضطراب فى صفوف الجيش العثمانى كله فتضعضعت أركانه ولم تأت الساعة التاسعة حتى كان ابراهيم سيد الميدان[1] و بعد أيام كانت برقية عباس باشا قد وصلت الى محمد على وهذا نصها :

" بعد ساعتين قتال مع جيش السلطان استولى ابراهيم باشا على جميع مدافع وخيم ومهمات الجيش العثمانى " .

فأمر محمد على باشا بإقامة الأفراح احتفاء بهذا النصر العظيم مدة ثلاثة أيام كوامل ، بينما أطلقت جميع القلاع وجميع سفن الأسطول مدافعها ابتهاجا بهذا الحادث العظيم . وفى صباح أول يوليو مات السلطان محمود قبل أن يبلغه نبأ هزيمة جيشه فى نزيب . وفى يوم ١٣ يوليو سلم أمير البحر أحمد فوزى باشا بالأسطول العثمانى فى الاسكندرية . فاستقبله الضباط المصريون استقبالا حفيا ، وكان مؤلفا من ٢٢ قطعة وانضم للأسطول المصرى وكان مؤلفا من ٢٧ قطعة فكون أسطولا من خمسين سفينة حربية عليها ٣٠,٠٠٠ بحار وجندى و ٣٠٠ مدفع فكان المنظر من أروع

---

(١) راجع مقال المغفورله محمد طوسون عن هذه المعركة فى حملة الجيش وفى كتاب الحركة القومية للأستاذ عبد الرحمن الرافعى بك .

المناظر التى رأتها مصر . وفى يوم ١٦ يوليو استقبل محمد على فوزى باشا وسبعين من كبار ضباط الأسطول العثمانى أرادوا انتزاع سيوفهم قبل دخولهم على محمد على فمنعهم الباشا زيادة فى التلطف ولما مثلوا أمامه خطب فيهم قائلا :

" يا أولادى ، نحن كلنا أبناء أمة واحدة . لا يقول المصرى أنا المصرى ، والتركى أنا تركى ، تجمعنا كلنا جامعة واحدة هى جامعة الدين ، وتربطنا كلنا رابطة واحدة هى رابطة الولاء لمولانا السلطان . وأما عظمة السلطنة وقوتها فانهما يتوقفان على جمع كلمة أبنائها . وحال السلطنة الآن غير مرض فيجب علينا أن نوحد جهدنا لنرفع شأن الدولة . ومن أعظم أمانى أن أعمل على رفع شأن العرش وسعادة الأمة وأن أخلص الإخلاص كله لمولانا السلطان قلبا وقالبا . إن السلطان جوهرة لا عيب فيها لا يدنسها إلا المقربون من العرش ؛ وأقصد بالمقربين من العرش خسرو باشا الذى كان دائما شؤما على الدولة ، وإذا بقى متوليا شئون السلطنة كان مصيرها الخراب . فالواجب علينا جميعا أن نعمل يدا واحدة لنحول دون تمكينه من الإضرار بالدولة " . وقد بقى الأسطول العثمانى فى قبضة محمد على سنة ونصف السنة رابضا فى ميناء الاسكندرية الى أن تم الصلح فأقلع فى يوم ٢٣ يناير سنة ١٨٤٣ عائدا .

أوربا تتحدى مصر

كان الجيش المصرى على أبواب الآستانة وكان الباب العالى بعد أن دمرت قواته البرية والبحرية مستعدا للتسليم بمطالب محمد على وجعل حكومته وراثية فى مصر والشام وكريت ، ولكن دول أوروبا لم ترد ذلك ، وبينما كان رجال حكومة الباب العالى الجديدة يعملون لإصدار فرمان بإجابة طلبات محمد على التى حققها بقوة السيف كان ممثلو الدول الخمس (روسيا ، فرنسا ، انجلترا النمسا ، بروسيا) يجتمعون فى اليوم السابع والعشرين من يوليو ليرسلوا مذكرة الى الباب العالى أعلنوا فيها أن الاتفاق بين الدول الخمس الكبرى أصبح أمرا واقعا وأنها تدعو الباب العالى ألا يبرم اتفاقا دون أخذ رأى الدول . وأبرمت الدول المذكورة (ما عدا فرنسا) معاهدة لندن فى ١٠ أبريل سنة ١٨٤٠ (١) ولكن محمد على رفض المعاهدة لأنه لم يشترك فى وضعها فأعلن الباب العالى خلعه وحصر الشواطئ السورية والمصرية . ثم تخلت فرنسا عن سياستها نحو محمد على وانضمت الى الدول الموقعة على معاهدة لندن وخابت آمال محمد على فى فرنسا . وأخيرا وجد محمد على نفسه قبالة قوات الحلفاء التى أعلنت عليه القتال فى الشام وفى مصر .

---

(١) راجع نص المعاهدة المذكورة فى كتاب الجيش المصرى فى عهد محمد على الكبير للبكباشى عبد الرحمن زكى .

وفى السادس من ديسمبر سنة ١٨٤٠ تلقى ابراهيم أوامر والده بالتقهقر نهائيا من الشام، فأصدر ابراهيم أوامره الى جيشه يوم ٢٩ ديسمبر بالجلاء. خرج جيش ابراهيم من الشام عائدا الى مصر بعد ما أقام فيها من ٣١ أكتوبر سنة ١٨٣١ الى ٣ فبراير سنة ١٨٤٢ فانتصر فى أربع معارك كبيرة ولو شاءت الأقدار السياسية لجعل هذا الجيش الحكم المصرى يمتد من حدود النمسا الى حدود إيران فبحر الهند فى آسيا ومن مصر الى الجزائر الى زنجبار. ولكن حروب الامبراطورية قد انتهت فالى أين يذهب الجيش العظيم ؟

هل يصبح الجيش بلا عمل ؟ وماذا يصنع به محمد على ؟

رأى محمد على أن يحوّل ذلك الجيش الذى أضناه التعب فى صحراء سيناء وسهول الشام وبطاح الأناضول الى قوة منتجة عاملة، فعوّل على الانتفاع به فى مشروعاته الزراعية والاقتصادية والادارية. فحوّل أسنة رماح جنوده البواسل الى خطوط المحاريث وجداول المياه وأصدر أوامره بالاستغناء عن آلاف من الموظفين لتحل كبار الضباط محلهم فى مناصبهم فتولى مناصب ادارة الأقاليم والمديريات القادة العظام وتقلد صغار الضباط الوظائف الصغرى واحتفظ بزهرة رجال الجيش للخدمة فى حاميات القاهرة والاسكندرية .

ابراهيم الجنـــدى

وهذا ابراهيم لم يكن إلا جنديا مطيعا لأوامر أبيه ، فلولا هذا الأمر لما عنى بتدخل أحد . ألم يكن هـو المجيب الى الكابتن « كابيـه » مندوب الدول الأوربيـة قائلا له بعـد انتصاره فى معركة نزيب :

" لقد درست التاريخ ، أليس كذلك ؟ فهل سمعت مرة أن قائدا منتصرا وقف عن مواصلة زحفه؟ إن كنت أنت قد سمعت بذلك فأنا لم أسمع به " ثم قال له مرة أخرى :

" لست أريد أن أدعوك الى الخروج (الانصراف) ولكنى أقول لك : إنك إذا ظللت تتحـدث الى عشر سنين طويلة فلن تستطيع أن تحولنى عن رأيى " .

وهنا قدر ابراهيم فأخطأ التقدير لأنه بقوله هذا كان يحكم على المستقبل ولم تكن هناك فائدة للتقرب من ابراهيم الجنـدى . فانصرفت الدول الى محمد على السياسى ولم يكن فى مقدور ابراهيم أن يتغلب على هذه الخطة ، لأن حبه لأبيه لم يكن حبا عاديا و إنما كان شغفا ، بل دينا . ولم يكن يستطيع أن يسلك سبيلا قد لايرضى عنها محمد على ، فلما تلقى أوامر أبيه أجاب « الكابتن كابيه » الى ماطلب ورضى ألا يعبر جبال طوروس وأن تكون أعماله الحربية

مقصورة على احتلال مرعش وأورفة وهما نقطتان لا غنى عنهما لضمان تموين جيشه . ولم يتحرك من مكانه حتى أمر أن يرسل رسوله ليلحق بطلائع جنوده ويقف زحفهم . فعل ذلك ابراهيم وهو آسف على ما فعله فى ساعة نصره المبين لأنه لم يشأ أن يسبب المتاعب لأبيه . وكان ابراهيم رجلا قوى الإيمان بقضاء الله وقدره ، ورأى أن لا مفر مما قضى عليه به ولكنه مع ذلك لم يتخل عن أمانته بل وقف شاكيا السلاح حتى استدعاه أبوه فى التاسع والعشرين من نوفمبر سنة ١٨٤٠ .

انتهت الحرب وكسبت مصر بفضل حكمة محمد على وسيف ابراهيم استقلالها فقد أصبح لها حق التصرف فى كثير من شئونها واعترف لها بمبدأ وراثة عرشها لكنها لم تحصل على الأملاك الواسعة التى لاح فى وقت من الأوقات أن رايتها سوف تخفق عليها وذلك لأن أوربا حرمتها ما كانت تركيا ستسلم به (١) .

---

(١) ابراهيم ، القاضى كرابينس ، وترجمة الأستاذ محمد بدران ص ٢٧٩

إبراهيم فى آخر أيامه

فى أواخر عام ١٨٤٦ مرض محمد على وأصبح عاجزا عن تولى سلطة الحكم ، فأصدر السلطان فرمانا بتولية ابنه ابراهيم باشا على مصر. وبعد وصول الفرمان مع مندوب السلطان (مظلوم بك) سافر معه ابراهيم الى الآستانة فوصل اليها فى ٢٤ أغسطس سنة ١٨٤٨ فاستقبله السلطان استقبالا فخما وأنزله فى القصر السلطانى فى الجناح الذى نزل فيه والده من قبل . وبعد أن تمت الزيارة عاد الى مصر على ظهر الباخرة المصرية «بنى سويف» فوصل الى الاسكندرية يوم ٩ سبتمبر ١٨٤٨ . ثم سافر ابراهيم مرتين الى أوربا، كانت المرة الأولى فى أواخر أغسطس عام ١٨٤٥ وكانت حاشيته مؤلفة من ٥٠ شخصا منهم : القائد سليمان باشا الفرنساوى ، وسامى باشا ، وإسكندر بك (ابن سليمان باشا) ونوبار بك سكرتيره، فقصد مدينة فرنيه فى جبال البرانس الشرقية ليستشفى بمياهها الكبريتية ، وفيها استقبلته البلدية استقبالا فخما جدا وأقامت له قوسى النصر كتبت على إحداهما بحروف من نور " الى بطل قونيا ونزيب " وكتبت على الثانية الى ابن محمد على الأمجد، الى رافع لواء المدنية فى الشرق ، الى صديق الفرنساويين ، الى البطل المصرى . وبعد انتهاء

العلاج سافر الى بوردو . ثم تور فباريس فوصل اليها فى يوم ١٥ أبريل ١٨٤٦وفى باريز استقبله ملك فرنسا استقبال الملوك وأسكنه فى قصر الأليزيه فى الجناح الذى سكنه من قبل نابليون الكبير وفى مدة إقامتـه فى باريس أقيمت له مآدب رسميـة كثيرة جدا وحضر تمثيل رواية فى الأوبرا كما حضر استعراضا عسكريا من ٣٠ ألف جندى شهده ثمانية أمراء وست أميرات ولزيادة الحفاوة بابراهيم باشا ضربت الحكومة الفرنسية (ميداليـة) نقشت عليها صورة محمد على باشا وكتب عليهـا " محمد على محـيي مصر " ولمـا بارح ابراهيم باشا باريس سلم محافظها خمسمائة جنيه يوزعها على الفقراء، وفى أثناء وجوده فى فرنسا دعته الملكة فكتوريا الى زيارة انجلترا فزار انجلترا وأيرلندة واسكتلندة وزار بوجه خاص لندن و برمنجهام ومانشستر . وفى لندن أقيمت له مآدب رسمية كثيرة، منها مأدبة أقامتهـا الملكة فكتوريا حضرها الأميرال كود رنجتون . وبعـد ما زايل انجلترا مر على البرتغال وهبط فى لشبونة ، ومنها سافر الى قادس وجبـل طارق فمالطـة ووصل الى الاسكندرية يوم ٥ أغسطس .

والرحلة الثانيـة التى قام بهـا ابراهيم باشا كانت للمعالجة . سافر يوم ٩ أكتوبر ١٨٤٧ ووصل الى مالطـة ومنها اتجه صوب

ايطاليا وفيها زار مدينة بيزا ففلورنسا واستقر به النوى فى مدينة نابولى حيث قضى الشتاء ، وفيها لحق به والده الذى كان قد قصدها للمعالجة أيضا .

وفى ١٠ نوفمبر ١٨٤٨ انتقل ابراهيم الى الدار الآخرة فى الساعة الواحدة صباحا وهو فى التاسعة والخمسين من عمره وخلفه على عرش مصر عباس باشا بن طوسون .

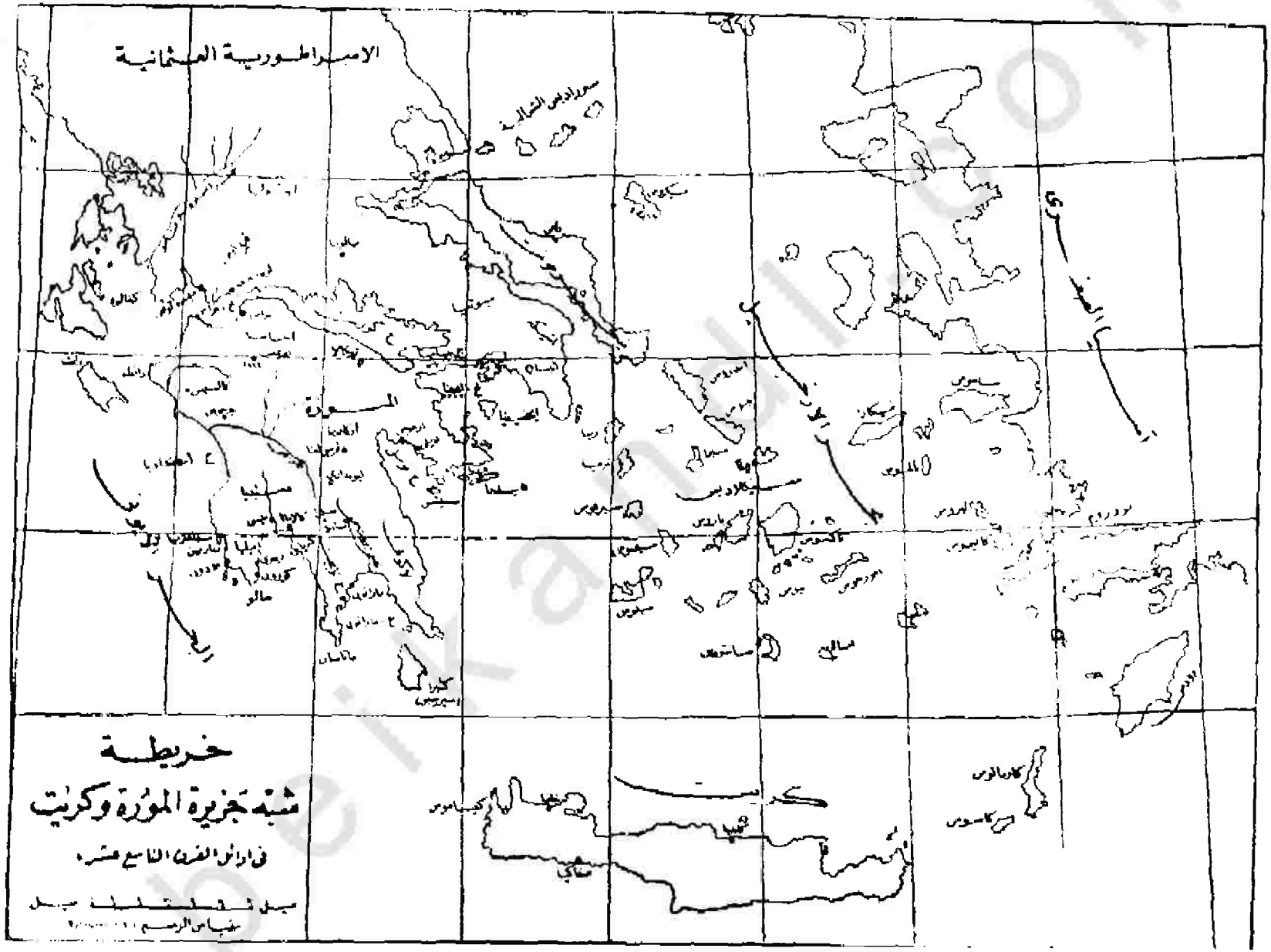
الامبراطورية العثمانية
خريطة
شبه جزيرة المورة وكريت
في اوائل القرن التاسع عشر

obeikandl.com

قادة الجيش الذين عاونوا ابراهيم باشا

لم تحظ أمـة بتاريخ عريق ، أسبغ عليها ألوان الإجلال ، ونسج حولها صنوف التقدير ، مثلما حظيت هـذه الأمة . بل ما من أمة أحاطها تاريخها — مهما بلغ هـذا التاريخ — بمثـل ما أحيطت به من هالات الإعجاب ودواعى الشهرة .

وحوادث هذا التاريخ الذى نعتز به اعتزازنا بحياتنا ، ونستأثر به استئثارنا بأرواحنا ، قـد جرت أو وقعت فى رحاب شتى من المعمورة ، فى وهاد وهضاب وقفار وشواطئ قارات العالم القديمة : افريقية وآسـيا وأوربا . فليست ثمة بقعة يتهيأ لأحد أبناء هـذا الجيل أن يمر بهـا ، إلا وأعادت إلى نفسـه ذكرى موقعة ظفرنا فيها ، أو معالم مؤسسات كنا منشئيها ، أو أصداء مدينة أو قلعة رفرفت عليها أعلامنا ، أو أطلال مقبرة وارينا فيها أعداءنا ، أو بقية من نصب يخلد فيه أبطالنا .

ومثل هـذا التاريخ الحافل بأساطير التضحية ، الزاخر بأماثيل الإيثار ، من صـنع بنائى مصر ، وفى طليعتهـم رجالات الجيش والبحرية ، الذين أهرقوا دماءهم ، و بذلوا أرواحهم ، فى سبيل الوطن على مر العصور ، دون ضنّ ولا منّ .

فان أردنا الحديث عن طائفة منهم ، و بخاصة قادة الجيش فى عهد منشئه العظيم المغفور له محمد على الكبير. فانا نبتغى استعراض مثل هذه الشخصيات العسكرية ، التى تتوارى خلف سحب الماضى المسدلة ، ونزيل الركام الذى ران على تلك الرؤوس المفكرة ففيها ما يستثير الوقدة المبدّدة فى جنبات الشباب ، و يوقظ الروح النائمة بين ظهرانيهم .

ارتأى محمد على — وهو القائد الفطن — أن لا شىء يصلح دولته الجديدة ، التى آلى على نفسه أن يرسى قواعدها على ثوابت وينهض بها فى سبيل المرتجى ، سوى إنشاء جيش على أحدث النظم . يدرّب فى صفوف وحداته أبناء البلاد على التقاليد العسكرية ، وينفث فيهم الأخلاق القويمة ، ويغرس فى صدورهم حب الدفاع عن الوطن .

ومضت سنوات قلائل ، وصار هذا الجيش نفسه نهضة اجتماعية بجانب كونه أداة حربية . وأيقظ فى شبيبة مصر رجولة كانت قد وهنت ، وألهب عزائم كانت قد خارت ، ولوّح آمالا كانت قد تلاشت . وخلق فى الشباب روحا نظامية وحربية كانت قد اندثرت ، وأشاع فيهم مطالب التقشف التى تداعت . وعوّدهم النظام وتأدية الواجب ، واحترام القانون ، والولاء للوطن .

وضرب العاهل العظيم للشعب المثل، فوهب الجيش أبناءه فكانوا مثالا للشجاعة بأكبر معانيها ، وصاروا قدوة فى التواضع والتضحية. فخاض ابراهيم البطل معارك المورة والشام والأناضول والجزيرة العربية والسودان ، على رأس جنوده الشجعان ، وشاركهم النصر كما شاركهم الأسى .

كان محمد على شديد الإيمان بنجاح النظام العسكرى فى مصر، والدليل على ذلك ما كتبه الى نواة ضباط جيشه الجديد بأسوان يعلن عما فى طوية نفسه من رغبة فوارة للنهوض بدولته الجديدة، قال لهم :

" إن سلك الجهادية الشريف هو أعز المسالك وأكرمها من الوجهتين الدينية والقومية . وأن الشئون الحربية هى أهم الشئون والمصالح بالنسبة للحكومة والوطن . وقد أثنى الله سبحانه وتعالى أحسن الثناء على من سلك هذا المسلك القويم فى قرآنه الكريم . وبين نبينا الكريم فى حديثه الشريف مقدار ما يصيب سالكى هذا الطريق من العزة والشرف والسعادة من كل الوجوه".

وإذا انتقلنا الى الحديث عن قادة جيش محمد على الكبير يواجهنا فى طليعة ما يصادفنا الفاتح ابراهيم يقف فى تاريخ مصر مثلما يقف تمثاله فى ميدان القاهرة . وكيف لا وهو الشخصية العسكرية الأولى التى تكاد تخفى ما عداها من شخصيات . ومهما

حاولنا الإشادة ببطولة ابراهيم فلن نوفيه حقـه فى كلمات قلائل . ولعلها كلمة الحق والواقع حين نقول إنه أعظم جندى أنجبته مصر فى خلال السبعماية عام الأخيرة، وهو المنفـذ الفرد لبرامج أبيه محمد على ، ولولاه لما ظفرت مصر بحقها فى الاستقلال والحرية منذ مائة عام .

وقبيل أن ندع ابراهيم جانبا ينبغى أن نذكر بالإجلال والإكبار الجندى العبقرى، سليمان باشا، رئيس هيئة أركان حرب الجيش فى حروب الاستقلال . سـليمان الذى اتخـذ من مصر وطنا له ، واعتنق الدين الحنيف، وانطلق يحمل السيف فى وجه أعداء مصر فى سبيل الحق والعدل . ورغم الشباك التى نصبتها الدول حـوله لاكتسابه وإغرائه ، ليتخلى عن خدمة محمد على، فقد ظل مخلصا له ولمصر، متفانيا فى حبهما معا ، إلى آخر رمق من حياته .

ومن ثم إذا سرحنا البصر فى صفوف جيش محمد على، لامناص من التوقف لحظة أو بعض لحظة قبالة اللواء اسماعيـل حقى أبو جبل . فمثل هـذا الجندى حظيت جرأته و بسالتـه باعجاب ابراهيم . فقـد عرفه منذ انتظم فى سلك رجال الآلاى الحادى والعشرين المشاة كضابط أول العلم . اشترك فى معارك بلاد العرب والشام كافة و بذا عاصر ميلاد الجيش المصرى من الوهلة الأولى .

سليمان باشا الفرنساوى

ونراه يتـدرج فى مناصب القيادة الى أن ينعم عليـه برتبة اللواء فى عام ١٨٤٩ . ويفضى به الأمر الى الاشتراك فى معارك القرم فيبلى فى غضونها البلاء الحسن مما تحدث به صفحات الوقائع . ويرتد بصحبة الجيش الظافر الى مصر، لا ليركن إلى أسباب الهناءة ودواعى المتعة، وإنما ليتقلد فى ميدان السلم أرفع المناصب المدنية، تقديرا لخـدماته، وتكريما لمزاياه . وظل كذلك حتى أحيـل إلى المعاش فى سنة ١٨٧٩ ثم يصادفنا الفريق أحمد يكن الذى أدّت به الظروف إلى أن يصـير ناظرا للحربية فى حكومة محمـد على . وهو شخصية عسكرية — ولا ريب — حملت تكاليف باهظة فى مجالات الإنشاء والبناء. وإذا استعدنا سطور حياته نجده قد اقتاد إحدى الحملات المصرية فى بلاد العرب كما تولى عدّة قيادات لطائفة من التشكيلات العسكرية فى ربوع الشام وسواها .

وإذا ذكرنا الفريق أحمد يكن فيتعين أن نذكر الفريق ابراهيم يكن فملامح حياة الاثنين تكاد تكون متماثلة إلى مدى ما .

وهنا يبرز لنا الفريق أحمد المنكلى باشا، وهو من قادة ابراهيم الأوائل، الذى طالمـا دوى اسمه فى المعارك ، والتمع نجمـه وسط اللهب . وهل فى وسع مؤرخ أو باحث أن يتجاهل هذا الجندى الكبير الذى احتضنه الجيش المصرى فى معظم وحداته ، وعرفه

بل قل أحبه جنوده وضباطه . هل فى ميسو ر منصف أن يفيه حقه ، وهوالذى عرف قدره محمد على فولاه عن حب وثقة قيادة الفرسان المصريين ، فى عهد كان للفرسان شأن وأى شأن ! ! ثم لا يكتفى بهذا فحسب بل يلقى اليه بزمام نظارة الحربية .

إن الانحناءة التقليدية لاتكون إلا لذكرى هذا الرجل ومن على شاكلته . فقد اختصه عباس الأول بقيادة الحملة المصريه الثانية لمساعدة الأتراك فى حربهم الروس مرتين . ولم يقتصر إدراك قيمته على المصريين وحدهم ، فنرى قائد حملة الحلفاء اللورد رجلان يطلب إلى سردار الجيش التركى عمر لطفى أن يتولى الفريق أحمد المنكلى منصب نائب القائد العام للجيوش العثمانية والمصرية ، فكان من خيرة القادة المصريين الذين عرفتهم أوربا فى القرن الماضى .

وفى هـذا السياق لا ننسى اللواء محمـد خورشيد باشا ، بطل الحـروب العربية ، وقاهر القـوات فى جل المعارك التى قدر له أن يخوضها . القائد الذى كان ينتزع النصر من بين أنياب الهزيمة ، ويبعث أسباب الأمل فى لحظات اليأس ! نرقبـه يحظى برتبـة اللواء ، ويشـترك فى حرب الاستقلال بالشام كما سبق له المساهمة فى قتال المورة . فقاد جنده من نصر إلى نصر .

وبعودته إلى الوطن، تقلد عدة مناصب سامية، إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة فى عام ١٨٤٨ وإذ نطوى صفحة هـذا الرجل، تنبسط أمامنا صفحات الفريق خورشيد طاهر باشا . وخورشيد طاهر باشا هذا تعرفه بلاد العرب معرفة جيدة . فقد كان القائد العام فى تلك البلاد عام ١٨٣٢ . تقفو أثره وهو ينساب على رأس قواته فى موجة من الانتصارات التى أحرزها بكفاءته وجرأته . وكفاه فخـرا أنه سلك برجاله من شاطئ البحر الأحمر إلى الخليج الفارسى واحتل جزائر البحرين .

وإذا أوردنا مثل هذه الأسماء التى تحلى جيد العسكرية المصرية فلا ينبغى أن نغفل الفريق سليم فتحى باشا ، أنبغ تلاميذ سليمان الفرنساوى ، الذى استشهد فى معـركة « أوباتوريا » برومانيـا فى فبراير عام ١٨٥٥ بعد أن أدى واجبه على خير ما يؤديه جندى يتفانى فى رسالته .

والى جانب هـؤلاء الرجال الأفذاذ الذين عرفهـم الجيش ، القادة : سليم باشا السلحدار ، وسليم باشـا قائد الحرس المشاة ، ومصطفى باشا حاكم كريت ، وابراهيم باشـا المكاوى ، والفريق أحمد طاهر . فكل اسم من هـذه الأسماء يحمـل فى ثناياه معانى الرجولة وينضوى فى نواحيه اضواء البطولة .

ولعلنا لا ننسى ، وقد تدافعت الأسماء وتزاحمت الصور ، الفريق عثمان نور الدين سر عسكر الجيش المصرى قبل توليه قيادة الأسطول . فقد لعب هذا القائد أدوارا ماثلة فى أفق التاريخ الحربى لا تنكرها النواظر .

أما اللواء المدفعى جعفر صادق باشا فهو أظهر من أن يشار اليه أو ينوه به . فإليه يعود الفضل فى انتصار الجيش المصرى فى معركة نزيب الفاصلة ، حيث نهضت المدفعية بأوفى نصيب من الواجب . وكان له أبعد الأثر فى انتصار مصر قبالة تركيا . بل إننا لا نغالى فى التعبير اذا أورينا بأن معركة نزيب ترتبط باسمه وتشيد بمجده وتضعه فى مصاف القادة الكبار .

ولعلنا نكون قد أدينا بعض الواجب ، وأيمنا بشىء من الوفاء حيال هؤلاء الرجال ، الذين لم يكونوا يوما عن بذل الروح والدم ، ليهيئوا لمصر مكانها الخالد بين الأمم .

أمراء البحـــر

كانت لمصر، منذ القدم، السيادة الشاملة على مياه بحريها، كما تسيدت ربوع أراضيها. ولاغرو فالدولة المستقلة هى صاحبة السيادة المطلقة على أرضها ومياهها وهوائها.

ولقـد حافظ على هـذه السيادة وصانها كل حكام مصر، فى عصورها التاريخية، فى عهـود أحمس وتحوتمس والرامسة. وفى أيام الدول الاسلامية: ابن طولون، وصلاح الدين، والظاهر بيبرس. وفى العصر الحديث: فى أيام محمد على الكبير الذى تدين له مصر بما أنشأ من قوات برية وبحرية لم تشهدها مصر، منذ أن أفل نجم السلاطين المماليك.

وليس الغرض أن نتكلم عن تاريخ إنشـاء القوات البحرية المصرية، ودور الصنعـة باسكندرية والسـويس، أو نأتى على وصف السفن الحربيـة وما اضطلعت به من معارك وأعمال عسكرية سجلها التاريخ. بل الغرض هو أن نتحدث عن أهم أمراء البحار فى أيام محمد على الكبير.

ومما لا شك فيه أن هذا الأسطول البحرى كان مفخرة لمصر. ولقد كان محمد على على حق حين قال فى مرسوم وجّهه إلى ضباطه:

"إن هذا الأسطول المنصور لم يوجد مثله فى تنظيمه وقوته بين المسلمين منذ ابتداء الدولة الإسلامية" . وقد أحرز المنزلة الثالثة بين أساطيل العالم كافة فى ذاك العهد .

إن هذا الأسطول ، الذى خشيته الدول وراحت تعمل جهدها ساعية لوأده ، لم يكن قويا بقطعه و إعداده بقدر ما كان قويا برجاله .

وحين نستعيد هذه الأسماء التى برزت فى آفاق البحرية المصرية يتردّد بين شفاهنا على الفور أسم أمير البحر اسماعيل جبل طارق ، فيكفى أن يكون البحار الأول الذى اضطلع بامارة الأسطول المصرى فى أيام محمد على لنتوقف لديه لحظة ونسترد ذكراه . ومن الطريف للغاية أن يقال إن المراجع تختلف فى لقبه ، فبعضها يسميه اسماعيل جبل طارق ، والبعض الآخر اسماعيل الجبل الأخضر ! و إذا ماتعقبنا خطواته . نجد الباشا يقلده قيادة السفينة « افريقيا » التى أنجز صنعها محمد أغا فى ثغر اسكندرية عام ١٨١٠ ، ومن ثم نراه يحمل على كاهله أعباء مهام بحرية بين لندن ومالطة ، بل و ينتدب للاقامة فى ثغر ليفورن ليتهيأ له الإشراف على مختلف الأعمال المصرية فى أوروبا .

وفى عام ١٨١٦ ؛ قام أمير البحر اسماعيل جبل طارق برحلة طويلة ، زار فى خلالها : لندن و باريس وهمبورج واستوكهلم ،

ثم اجتاز روسيا، وقفل عائدا الى مصر عن طريق البحر الأسود بعد أن وقف بنفسه على أحوال الأسواق الأجنبية والدعاوة للمنتجات المصرية .

ولما شبت الثورة فى بلاد اليونان، وكانت آنذاك تحت سيطرة الأتراك، استنجد الخليفة العثمانى بمحمد على باشا وطلب إليه أن يعاونه بقواته البرية والبحرية. وكان ما ابتغاه السلطان ، وأقلع الأسطول المصرى فى يوم ١١ يوليو عام ١٨٢١ بقيادة أمير البحر اسماعيل جبل طارق ، على ظهر ست عشر سفينة كاملة العدد والعتاد — وانضم فيما بعد الى الأسطول التركى وعملا معا فى إنزال الضربات بثوار الأروام حول شواطئ الأناضول وجزره ثم عاد الى اسكندرية ليستعد للجولة الثانية ، على رأس أسطول عظيم بلغ عدد قطعه : ٢٩ سفينة حربية و٤٣ نقالة للجنود — فتابع المعارك البحرية ضد الأعداء ، وقد كللت جهوده بما نسميه النجاح ، وأدى مهمته على خير وجه فى مياه كريت وقبرص وبحر إيجه .

واسترسل اسماعيل يواصل انتصاراته فى خلال عام ١٨٢٤ وحدث أن استهدفت سفينته فى ميناء ستنكو فى معركة حامية مع الأعداء ولكنه استطاع بمهارته أن يصيب إحدى السفن اليونانية إصابة قضت عليها ويوقعها فى أيدى المصريين مما أثار الذعر فى بقية السفن فلاذت بالفرار متوارية تحت أهداب الظلام .

وفى معركتى «ستمباليا» (١٣ نوفمبر ١٨٢٤) و «سيريجو» (٢٩ ابريل ١٨٢٥) البحريتين ، استطاع ابراهيم باشا بمعاونة اسماعيل جبل طارق القضاء على معظم قطع الأسطول اليونانى التى كانت تهدد خطوط المواصلات مع الآستانة وكذلك بين الاسكندرية وبلاد اليونان ، مما كان له الأثر الكبير فى إنزال القوات المصرية على أرض شبه جزيرة المورة بعد إنشاء قاعدة أو رأس جسر لتسهيل عملية الغزو على نطاق وسيع .

وتتفاوت الآراء فى وفاة هذا القائد ، بيد أننا نميل الى الأخذ برأى الأميرال دوران فيبل مؤرخ البحرية المصرية فى عهد محمد على وابراهيم ، وهو الرأى القائل بأنه لما تقدمت به السنّ وانتابه المرض والتعب بعد حرب استطالت خمس سنوات ، اضطر الى العودة الى اسكندرية ، حيث اعتكف فى داره ، الى أن لفظ أنفاسه الأخيرة فى أوائل عام ١٨٢٦

وإذ نودع اسماعيل جبل طارق ، نصادف أمير البحر محرم بك ، وحين أقول محرم بك ، لاشك يذكر القراء حى محرم بك المعروف فى ثغر اسكندرية . فقد أطلق عليه هذا الاسم تخليدا لذكرى هذا البحار الذى ولاه محمد على إمارة الأسطول المصرى أثر وفاة اسماعيل ، وكان قد اشترك فى عمليات البحر الأبيض البحرية عدّة سنوات .

والمعروف عن محرم بك أنه ولد فى قولة حوالى عام ١٧٩٥ ، ثم جاء الى مصر وتقرب من محمد على الذى وثق به واتخذه صهرا له وزوجه من كريمته نفيدة هانم .

ولما اشتدت نيران المعارك البحرية فى ١٨٢٢ ، أمر محمد على صهره محرم بك وكان يشغل منصب محافظ الاسكندرية ، بأن يشرف على إعداد أسطول يتولى قيادته ويقلع به للانضمام الى الأسطول المحارب .

أعدّ قائدنا البحرى أربع عشرة سفينة بما يلزمها من الجنود والعتاد . وفى شمال مياه كريت التق بأسطول يونانى كبير فلم يدع له محرم بك فرصة الانقضاض وهجم عليه مفاجئا هجمة صادقة رغم ما حوله من ظروف قاسية . وانتهت المعركة الحامية باستيلائه على ثلاث من قطع أسطول العدو وولى الباقى الأدبار وخلا له الجو فتقدم صوب جزر الأرخبيل ، تجلل هامته بشائر النصر ، ليكمل واجبه .

وفى خلال الحرب ، كان يتردد القائد الظافر على اسكندرية ، ليشرف على أعمال إصلاح السفن وترميمها ثم ترحيلها ، إذ كانت الأحوال تتطلب خبيرا مثله اتسم بالحزم والسرعة على تدبير أمر حراسة القوافل التى ما زالت — الى يومنا هذا — مشكلة المشاكل .

ويشاء سوء الطالع أن يكون محرم بك على رأس أسطوله العزيز فى معركة نفارين (أكتوبر عام ١٨٢٦) ويشهد بعينى رأسه النكبة التى ألبست أوربا ثوبا العار . فيعود محزون القلب مع ما تبقى من السفن المصرية .

ولم يعد فى وسعه — بعد هذه الصدمة — البقاء فى منصبه كأمير للأسطول، وتخلى عنه وخلفه أمير البحر عثمان نور الدين باشا واحتفظ بمنصبه كمحافظ الإسكندرية الى أن ووارى التراب بالثغر فى ٢٠ ديسمبر عام ١٨٤٧ ودفن بمقابر الأسرة الملكية بمسجد النبى دانيال .

وهنا ننتقل الى أمير البحر الثالث عثمان نور الدين ، أحد رجال المدرسة الحديثة فى دولة محمد على الناهضة . ونحن إذا ماسرحنا الطرف فى كتاب حياته نجده يولد فى جزيرة ميديلى ويفد الى مصر بصحبة أسرته . ويقع عليه اختيار الباشا مع أفراد البعثة الأولى لتلقى العلوم الحربية والبحرية ، فى فرنسا وإيطاليا . وكان ذلك فى عام ١٨٠٩

ومكث يطلب العلم فى بيزا بايطاليا نحو خمس سنوات، ثم زايلها الى فرنسا ليتم بها تعليمه فلبث بها زهاء عامين . وعاد الى مصر فى سنة ١٨١٧ ، فكان ساعد محمد على فى نهضته الحربية والعلمية .

عين ضابطا فى حرسه، ثم ألقى على كاهله تنظيم مجموعة الكتب التى أحضرها معه من فرنسا، فى قصر ابراهيم باشا، فكانت نواة أول مكتبة حديثة فى مصر. ثم ندبه فى عام ١٨٢٠ مع مدرسين آخرين لتعليم نخبة من التلاميذ العلوم الهندسية واللغات الأجنبية، وفى هـذه المدرسة أشرف على ترجمة عدة كتب حربيـة وبحرية وهندسـية.

وحين أقبل عام ١٨٢٢ كان أبرز أعضاء اللجنة التى شكلت لوضع برامج نظامية للتعليم العسكرى بالمدارس الحربية، وتأسيس النظام العسكرى.

وفى عام ١٨٢٣ عين عثمان بك نور الدين سر عسكر الجيش المصرى. وبعـد عامين اشترك مع الجنرال ليتليه فى تنظيم شئون البحـرية وتعليم ضـباطها. ومما يذكر له بالفخـر أنه أسس فى عام ١٨٢٥ المدرسة الحربيـة بقصر العينى كما ساهم فى إنشاء مدرسة أركان الحرب بالخانقاه.

وفى كل هـذه المناصب بذل همـة وجهودا فـذة تستوعبها صفحات التاريخ المصرى، وتتداولها رجالات البحرية.

ولم تقف جهوده عند هذا الحد، فعلى أثر أن حطم الأسطول المصرى فى مأسـاة نفارين، كان هـذا القائد الموفق المسـاعد

أمير البحر حسن الاسكندرانى باشا

الأول للمسيو سيريزى على إنشاء دار الصناعة والأسطول الجديد فى اسكندرية .

هذا هو الجندى الكبير عثمان نور الدين الذى حظى بثقة محمد على فاصطفاه وأنصت إلى آرائه وبالغ فى رعايته . ولم يكن إغداق الحب والعطف من جانب الباشا على قائده عبثا ، فقد كان عثمان أهلا لكل حب جديرا بكل حظوة . وكفى أنه كان رجلا مثقفا واسع الأفق ، يعنى عناية خاصة باستشارة الكتب والمراجع ، لدراسة كل موضوع يكلف ببحثه وتنفيذه . كما كان مخلصا لرب نعمته . وعلى يديه بلغ النظام بالأسطول المصرى فوق ما كانت ترنو إليه الآمال . وكان يخرج بالسفن بنفسه لإجراء المناورات ، وتدريب البحارة ، مدة ثلاثة أشهر فى كل عام ، إلى أن بلغت العمارة المصرية درجة رفيعة .

وفى عام ١٨٣٢ ، لما تحرجت الأحوال بين مصر ووالى عكا ، كان عثمان نور الدين فى قيادة الأسطول المصرى الكبير ، واشترك فى معارك عكا البحرية وما تلاها من عمليات أخرى ، وكللت جل خطواته بما تستأهله من نجاح وتوفيق .

ولكن يشاء سوء الحظ أن يختلف فى الرأى مع محمد على حينما ندبه لتنظيم حكومة كريت المصرية ، فكتب الى ناظر الخارجية

يبلغه اعتزال خدمة الباشا ، ولم يرتد الى مصر . فتسلم قيادة الأسطول مصطفى مطوش .

ومصطفى مطوش هذا ، بحار آخر كشف نبوغه محمد على ، فولاه ثقته وعينه وكيلا للأسطول المصرى فى حرب المورة ، ثم قلده نظارة البحرية فأظهر دراية وكفاءة ، واشترك فى معارك المورة ومعارك الشام البحرية فتجلت مواهبه ، وأخيرا حظى بإمارة البحر فى عام ١٨٣٤ .

وكلما يذكر اسم مصطفى مطوش يذكر ديوان دار الصناعة الجديد الذى وضع تصميمه ونال الإعجاب آنذاك ، وخير وصف عنه هو الذى قاله فيه الأميرال دوران فيل :

" كان مطوش حقيقا بما بلغه من أسمى المناصب ، وذكراه جديرة بأن تسجل فى القلوب على مرّ الزمان " .

وظل هذا الرجل ، الذى اتصفت أعماله بالجرأة والتقدير ، مكبا على عمله لا يغفل لحظة عن تأدية واجبه بل ما هو أكثر من الواجب ، الى أن لقى ربه فى عام ١٨٤٣ فخلفه الأمير سعيد باشا .

ولا يتسع المجال للتحدث بالتفصيل عن جميع أمراء البحر فى عهد محمد على الكبير ، وكفى أن نذكر حسن الإسكندرانى الذى برزت مواهبه على عهد خلفاء العاهل العظيم ، وزميله محمد شنن ،

ومحمود نامى، والقبودان عبد الكريم ، ومحمد راغب الاسلامبولى، وسليم محمـد قبطان قائد الأسطول النيلى الذى يرجع اليـه الفضل فى كشف مجاهل الينابيع النيلية فى رحلات ثلاث .

وبهذا ينتهى الحديث عن طائفة رجال البحر الأوائل، الذين امتطوا متـون السفائن المصرية ، وجابوا عرض البحار، رافعين علم مصر، وباسطين سلطان مصر، ومتحدثين باسم مصر .

عاشت مصر حرّة كريمة، فى ظل حفيد مؤسس مصر الحديثة حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق المعظم، سدّد الله خطاه لكى يصل الى مبتغاه .

* * *

كَمُلَ طبـع كتاب " ابراهيم باشا ١٧٨٩ — ١٨٤٨ "
بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الثلاثاء ٨ محرّم سنة ١٣٦٨
(٩ نوفمبر سنة ١٩٤٨) ط

محمد نديم
مدير المطبعة بدار الكتب
المصـــرية